روجيـه موكيـالي

العقد النفسية

ترجمة
موريس شربل

منشورات عويدات
بيروت - باريس

المقـدمـة

توقّع النجاح لمدرسة التحليل النفسي خلال ربع قرن بعد مؤلفات فرويد الأولى . إلا أن سيكولوجيا الأعماق انتشرت في العالم مع قدرة ضئيلة على التوسيع ، متخطية الأوساط المتخصصة إلى أن تصل إلى الفن والنقد الأدبي ومن ثمّ إلى الكتب المدرسية والمخازن ، تاركة وراءها أفكاراً بارزة يحُتمل أن تصبح حقائق ثابتة من شأنها أن تغيرّ العادات والتقاليد ، أضف إلى ذلك التعابير التي أدخلتها في الأحاديث العامة مثل : اللاوعي ، الليبيدو ، النكوص ، التعويض ، الكبت ، الغريزة الجنسية ، التناقض الوجداني ، الاستيهام ، الاسقاط النفسي : ... وغيرها الكثير . ولم يجد أي تعبير نجاحاً بقدر ما وجد التعبير : « العقدة » ، رغم أن فرويد نفسه لم يكن مكتشفها .

إلا أن النبوغ الشعبي استخدم الكلمة في معنى خاص هو « العائق » خلال التنفيذ المباشر للعمل ، أو الضائقة النفسية أو كبت السلوك المتكيف عادة مع الأسباب الذاتية وغير الارادية » .

مثل هذه المرأة التي تقول ، « إن مثل هذا النوع من العري يعقدني » في مثل هذا المحيط حيث تشعر أنه تغيرّ بشيء من الغموض وكان غير لائق ... وهي تعني بذلك أن سلوكها الاجتماعي حتى

الآن لا يزال مشوشاً بهاجس يضايقها ويلازمها رغمًا عنها بالقرب من وعيها الواضح ، هاجس يكمن في ثيابها ويتمركز فيها الآن وهنا بالذات .

قال أحد أطباء الأسنان لمريضه الذي كسر فكَّه في الحرب الأخيرة : « أشعر بعقدة عندما أبدأ بالعناية بأسنانك » . إنه يريد أن يُعبِّر بدون شك بذلك عن ضيق مبهم ، لا يستطيع تجنبه ، ويضايقه في تصرفاته المهنية العادية ، أو ربما ، بكل بساطة شعور خاص .

يقول العاشق لصديقته الصغيرة الجديدة « لا تضعي العقد » إذا كانت هذه مترددة أمام اقتراحاته . فهو يلاحظ بذلك أنواع الكبت الموجودة عند الآنسة بغية تغيير موقفها وذلك يجعلها تشعر بأنها ليست على الدُّرَجَة (الموضة) ، وبأنها متخلفة ، وبذلك يخلق نوع من العقدة المعاكسة لتحريرها من العقدة الأولى والوصول إلى غاياته .

كما تبنَّت اللهجة العامة التعبير التالي « عقدة النقص » لتدل على الاعتقاد بأن للشخص قيمة أقل من غيره أو أقل قدرة أو أقل ثقة بنفسه أو بالمستقبل . قد تحصل عقدة النقص إذا نتج عن ذكر بعض العناصر في بطاقة الزيارة موقفاً منتقصاً . وهكذا لا يكون هناك نائب مدير أو نائب رئيس مكتب بل هناك معاونون . فالدفاع ضد النقص يتجه إلى أقصى حد عندما تطالب مقاطعات اللوار الدنيا أو مقاطعات الألب المنخفضة بتسميتها من الآن وصاعداً اللوار الأطلسي أو مقاطعة الألب العليا .

تكمن إحدى تقنيات إذاعة الحرب النفسية بالإلحاق بالعدو « عقدة الذنب » معنى التعدي أو الغش أو المزيد من الثقة ، ومتابعة الاستفادات المخجلة والقذرة والأنانية ، والأعمال الدنيئة ، واستغلال الشعب والابتزازية بغية إحداث الخوف والخجل من الذات حتى إحداث الشلل في السلوك . . . المظاهر التي تميز « عقدة الذنب » .

فاللهجة العامة قد استوعبت محتوى الكلمة وفرضته بحدس صادق للتعبير عن ميكانيزم نفساني يؤرجح الفعل السوي ، مثيراً بالنسبة للوعي مشكلة تبقى جذورها غامضة ، لكن نتائجها تبقى ذات شعور نوعي أو اضطرابي أو بالأحرى رصغاً للسلوك .

بالعكس ، نقول عادة عن شخص أنه غير معقد ، عندما يكون واثقاً من نفسه في كل مشاريعه أو في كيانه العام ، وعفوياً في تكيفه بشكل لبق والسيطرة على النفس التي تتميز بالاسترخاء التام .

من وراء هذه الكلمة التي أصبحت بسيطة ومتداولة تجمعت كميات من الأبحاث النفسية والتحليلية ملأى بالملاحظات والافتراضات والاحصاءات حول كل العقد الممكنة مع بعض التفسيرات » دون أن يتوصل البحاثة إلى إتفاقٍ أو إلى تركيب معين .

ظهر لنا أنه من المفيد تجريب هذا التركيب ، وإعطاء المزيد من التفاصيل في كل الأحوال حول العقد النفسية ، أكثر مما قالته العامة .

القسم الأول

العقدة النفسية ونسقها الإجرائي

الفصل الأول

العقدة النفسية من خلال كتابات وتجارب المحلل النفسي

من خلال مجموعة للأحداث التاريخية التي تجمعت حول مفهوم « العقدة » نستطيع أن نميِّز بين ثلاث محاولات ، غالباً ما كانت تختلط في ذهن البحاثة وكتاباتهم : من جهة إيضاح ما يجري ، ومن جهة ثانية اكتشاف وصياغة « العقدة الأصلية » التي تتفرَّع عنها كل العقد الأخرى بشيء من التغيير ، وأخيراً إحصاء ووصف لكل العقد الممكنة . وفي هذا المجال نصل إلى عدة عشرات من العقد ، إن لم يكن أكثر من مئة ، مما يشكل حدثاً مكتملاً لا أتعمّد إعطاءه تفسيراً هنا .

من المفضل إتباع الأسلوب التاريخي في الاستطلاع النفسي لهذا المجال الخاص ، الذي يتناول عن قرب حياتنا اليومية .

I ـ قبل يونغ

يُعتبر المحلل النفسي السويسري الشهير كارل جوستاف يونغ (١٨٧٤ ـ ١٩٦١) المكتشف الأول لكلمة « عقدة » بمعناها الحديث . إلا أنه في إحدى منشوراته المتعلقة بروائز الكلمات المجمعة (١٩٠٦) وضع تاريخاً مفيداً بشكل خاص .

من المؤكد أن تاريخ روائز الكلمات المجمعة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ اكتشاف العقد . تكمن أهداف هذا الرائز في لفظ الكلمات البسيطة بصوت محايد مع الطلب إلى الشخص الممتحَن بأن يلفظ بأسرع وقت ممكن أول كلمة تأتي إلى فكره بعد سماعه الكلمة التي يلفظها القائم بالتجربة .

أول باحث فكَّر بهذه الطريقة كان الانكليزي فرنسيس جالتون (١٨٢٢ـ ١٩١١) الذي نعتبره أحد الرواد الأول في مجال السيكلوجيا التطبيقية . حاول جالتون (ابن أخت داروين) متأثراً بمشاكل الوراثة النفسية ، اكتشاف أسرار الفكر البشري بشتى الطرق . اكتشف سنة ١٨٧٨ الكلمات المجمعة بغية دراسة « الصور الذهنية » . أعاد ووندت هذه الطريقة سنة ١٨٨٢ . ووندت (١٨٣٢ ـ ١٩٢٠) هذا هو مؤسس أول مختبر للسيكلوجيا التجريبية في ليبزيغ كي يدرس قوانين تداعي الأفكار (مسألة نظرية كلاسيكية في أواخر القرن التاسع عشر) ، وتوجيه البحث الذي أعاد النظر فيه طبيب الأمراض

النفسية المشهور الألماني الأصل إميل كرايبلين فميَّز بين الاضطرابات النوعية لهذه القوانين في مختلف الأمراض العقلية .

قام الطبيب الألماني ثيودور زياهن ، بعد الرجوع إلى المراجع السابقة الذكر وإلى جالتون بشكل أساسي ، بتطبيق ودراسة الروائز سنة ١٩٠٠ (فكلمة رائز تمَّ اكتشافها سنة ١٨٩٠ على يد الأميركي كاتل عندما مرَّ بمختبر ووندت) فاكتشف ثلاثة أشياء : (١) مرحلة الكمون (الوقت الذي يستغرقه المجيب لترابط أفكاره) وتكون أكثر امتداداً بقدر ما تكون الكلمة الموجهة (الكلمة التي يلفظها القائم بالتجربة) لها وقعاً سيئاً على أذن السامع : ٢) إذا جمعنا الاجابات المعطاة في مرحلة الكمون المطولة ، يمكننا ربطها بعقدة التمثيلات البيانية المشحونة بالانفعال أو بالاحتصار نربطها بالعقدة . ٣) على أن الموضوع المشار إليه ، عند تقديم الاجابات ، لا يعي الصلة بين ردود فعله اللفظية وهذه « العقدة » .

تظهر هذه اللمحة التاريخية البسيطة أن البحث عن « العقد » قد بدأ قبل التحليل النفسي وبعيداً عن مدى انتشار هذه المدرسة وتطورها . وحتى جانك ، الذي اهتم بروائز زياهن وباستنتاجاته سنة ١٩٠١ (حول تثقيف رئيسه في الخدمة الأستاذ أوجين بلولر في المستشفى السويسري بورغولزلي) ، حتى يونغ لم يكن على أية صلة بفرويد ، لأنه لم يدخل في حلقة المحللين النفسيين إلا سنة ١٩٠٩.

هناك سلسلة أعمال ينبغي ذكرها ، وهي في مجال مستقل تماماً عن

هذه الحلبة الأولى التي تؤدي إلى « العقد » : إنها أعمال الدكتور الفرنسي بيار جانيه (١٨٥٩ ـ ١٩٤٧) والمعروف بتنافسه مع فرويد في مسألة أي منهما اكتشف اللاوعي (والذي أطلق عليه جانيه الشبه واع Subconscient) .

أطلق جانيه سنة ١٨٨٦ ، خلال عمله الوحيد في مجال الأمراض العقلية ، كلمة « الفكرة الثابتة شبه الواعية » على حدث مرضي يكمن ، حسب قوله في « انفعال مجمَّد ، يتجاوز الوعي » . . . « ويعود في أصله إلى حدث سببه صدمة نفسية أو خوف أصبح ذكره شبه واع أو ربما قد حلت محله بعض الأعراض » . أكَّد جانيه بأنه لاحظ أيضاً أن الأفكار الثابتة شبه الواعية يمكن أن تتنظم في سلاسل ، فتجد كل حلقة أساسها في فترة معينة من تاريخ الفرد . من ناحية أخرى يمكن لهذه الأفكار أو الصور (فكلمة فكرة هنا تعني « صور تذكارية » أو كما قال زياهن « تمثيلات بيانية مشحونة بالانفعال » أن تتوسع وتتطور وتتضخم . وتنكشف في حالات التنويم المغناطيسي ، وعندما تكون هذه التطورات واعية تُحدث عصاباً نفسياً استحواذياً . وعندما تكون لا واعية تؤدي إلى أنماط سلوك عرضية أو حالات جسدية من التشنج والتقفع .

نستطيع أن نقابل « التطورات أو الأفكار الثابتة شبه الواعية » « بالعقد » التي تم اكتشافها وتسميتها في الخط التاريخي من جالتون إلى يونغ ، هذا ما يمكننا تأكيده بالعودة إلى جانيه نفسه . دون أن نتعرف

إلى حقيقة تاريخ كلمة « عقدة » وإرجاعها إلى فرويد الذي تبناها من وقت لآخر كما سنرى . أعلن جانيه في ٨ تموز ١٩١٣ في تقريره في القسم الثاني عشر من المؤتمر السابع عشر العالمي في الطب الذي عقد في لندن (تقرير حول التحليل النفسي الذي أعلنه هـ . اللمبرجه ، اكتشاف اللاوعي تر . فر . ص . ٥٧٤) : « إن فرويد قد أطلق كلمة عقدة على ما أطلقت عليه : الفكرة الثابتة شبه الواعية » .

وهكذا تكون قد حددت معاني العقد منذ العام ١٩٠٠ كذكريات من الماضي أو نوع من التمثيلات البيانية المشحونة بالانفعال وغير الواعية ، أو نوع من الانفعالات الثابتة القابلة للنمو بعيداً عن الأنا الواعي وجاعله ردود الفعل على الموقف الراهن مضطرباً بشكل محدد .

يمكن الاعلان عن العقدة بدرجة منخفضة من الشدة وشبه الوعي بهذه القصة عن السيرة الذاتية لديكارت (رسالة إلى صديقه شانوت في ٦ حزيران ١٦٤٧) حيث أعلن أن عنده نزوع طبيعي للوقوع في حب النساء المشبوهات وإنه فكر فيهن حسناً مرة واحدة فتذكر ، وهو ولد ، إنه أحب بحنان أمرأة مصابة بهذا الشذوذ .

ففي درجة عالية من التوتر وعدم الوعي ، درجة مرضية نموذجياً ، فقد أعلن عن العقدة في حالة المريضة ماري التي كتب عنها جانيه في ١٨٨٩ (اللاإرادية السيكلوجية ، منشورات سنة ١٩١٩ ص . ٤٣٦ ـ ٤٤٠) : أرسلت ماريا إلى المستشفى في عمر ١٩ سنة بسبب

أعراض عقلية . بالواقع كانت مصابة بنوبة عصبية تشنجية وهذيان حمّي حصل بعد ظهور الطمث عندها بعشرين ساعة . توقف الطمث بسرعة وارتجاف كبير هزَّ الجسم بكامله بعدها شعرت بألم قوي يصعد من بطنها إلى بلعومها وبعدها بدأت نوبة عصبية تشنجية لم تكن صرعة مطلقاً . بفضل طريقته (نكوص تحت تأثير التنويم المغناطيسي) توصل جانيه إلى القصة التالية : رأت ماري طمثها الأول في عمر ١٣ سنة ولكن آراء وأفكار صبيانية وظروف غير واضحة . فقالت في ذهنها أن هذا الخجل مخزي ويجب توقيف النزف مهما كلَّف الأمر . بعد عشرين ساعة تقريباً انطلقت ورمت نفسها في حوض كبير بارد ، فتوقف الطمث لكنها شعرت بارتجاف أو رعشة قوية وبقيت مريضة مع هذيان حمي بضعة أيام . ولم يظهر الطمث عندها إلا بعد خمس سنوات وعندها بدأت الأزمات تظهر من جديد .

تحدِّد الموقف من ناحيتين : من جهة انفعال غير قابل للضبط ، لكنه محدود ، بردة فعل غير مفسرة وغير واعية لموقف راهن أو لاشارة موضعية ، ومن جهة أخرى إلى ردة فعل لموقف راهن تبعاً لدينامية مرضية ولفكرة ثابتة لا واعية » بقايا صدمة نفسية سابقة . بين هذين القطبين في الجاذبية (بما في ذلك القطبان نفسهما) يتمركز سلَّم « العقد » .

تلك هي أول فكرة عن الظاهرة عندما بدأ جانك أبحاثه .

II - يونغ Jung

كما رأينا سابقاً كان يونغ مساعداً للأستاذ بلولر في يورغولزلي ، تسلَّم مهمة دراسة رائز الكلمات المجمعة واهتمَّ بذلك في سنة ١٩٠١ . قام بوضع أول رائز اسقاطي لاكتشاف اللاوعي الشخصي ، كان ذلك لأول مرة يلتجىء العلماء إلى اختبار يحاولون فيه الدخول بطريقة منهجية في لاوعي الفرد .

تعرَّف يونغ إلى سلسلة جالتون - زياهن ؛ كان يجهل سلسلة جانيه المعاصرة له . تناول الرائز وقنَّنه . كان من المفروض تشكيل لائحة أولية من الكلمات البسيطة من مقطع واحد أو مقطعين ودون أي ارتباط بينهما في المعنى (مثلاً : كلب ، ماء ، أصبع ، أعطى ، أرضى ، ورق ، عين ، غابة ، باب ، سمين ، أب ، شارع ؛ ، سرير ، حرف ، أحمر ، حية ، طابة ، لحم ، مخزن ، ذهب ، مقعد ، أكل ، أخت . . . الخ . .) ومن ثمَّ لفظ هذه الكلمات بشكل هادىء ورصين أمام أفراد كل لوحده ويطلب لكل منهم الإجابة على كل كلمة بأول كلمة ترد إلى ذهنهم وبأسرع ما يمكن . سجل كل من يونغ وبلولر Bleuler الكلمة - الاجابة (أو الكلمة المستقرأة) وزمن الاجابة (أو زمن الكمون على جزء من خمسة من الثانية) والسلوك الذي يعتري الفرد آنذاك . بعد تمرين حوالي مئة كلمة تعود التجربة لتبدأ من جديد بالكلمات نفسها ويسجل القائمون بالتجارب التغييرات المتوقعة للكلمة المستقرأة .

لاحظ يونغ ، خلال هذه اللعبة الصغيرة ، عدة اضطرابات : تثبيت لبعض الكلمات من قبل المجيب ، ازدياد وقت الكمون بالنسبة لبعض الكلمات (بالنسبة لمعدل الفرد الوسطي) ، تغيير في الاجابات في التحرير الثاني لكلمة المستقرأة ، الاستمرار في الاضطراب على بعض الكلمات اللاحقة التي تبقى منعزلة أو في مكان آخر أو محايدة .

من المفيد أن نلاحظ هنا أن هذه التجربة (تستطيع القيام بها بمفردك) لا يمكن تفسيرها بقوانين « الأفكار المترابطة » وحدها والمعروفة منذ أكثر من قرن ، كما لا يمكن تفسيرها « بالنظرية الشرطية » المكتسبة بالحياة . تستطيع بالضبط تفسير الاجابات غير المضطربة بهذه القوانين أي تلك التي لا تثير اهتمام السيكولوجي . إذا أجاب العميل أوتوماتيكياً على كلمة « ثلج » « أبيض » (ترابط أفكار بالتجاور) أو أجاب « أسود » (ترابط عكسي) أو « طبيب » (ترابط موضوعي شخصي أو قانون الاستفادة) كل ذلك لا يثير اهتمامنا . لكن إذا اضطرب عند لفظ كلمة « أبيض » أو أخذ وقتاً طويلاً وأجاب « أسود » في المرة الأولى ثم أجاب « أصفر » في المرة الثانية ، وهذا الاضطراب أقلق الاجابات الثانية والثالثة المستقرأة حول كلمات لاحقة في لائحة أخرى لا تستدعي كلماتها أي قلق ، ها هنا ظاهرة ، يقول يونغ ، تستحق التفسير . استنتج يونغ من كل ذلك إن كلمة « مستقرىء » تلامس بشكل أو بآخر كلمة « عقدة » ، وعلى أن الأنا الواعي قام بعملية دفاع ضد الهمزة الانفعالية أو العاطفية وذلك بكبت

الكلمة أو الصورة المستوحاة فعلياً وبلفظ شيء آخر محله (في النهاية يقول شيئاً ما) . إلا أن هذا السباق أخذ وقتاً كافياً ورافقه انفعال رزين ، وحطّم الأفعال غير الإرادية أو الأعمال الشرطية بالتأثير على الكلمات المحايدة .

علينا أن ندرك أن العقدة ليست فقط إندماجة فكرية ـ عاطفية شخصية ولبست حاضرة في الوعي ، إنما هي أيضاً محتوى هذه الاندماجة الذي يوحي بدفاع الأنا ضد الأفكار والذكريات والأحاسيس التي تثيرها مثيرات الواقع الحاضر . من الملاحظ أن الفرد الذي يخضع لمثل هذا الرائز لا يعي أبداً الاضطرابات الحاصلة في إجاباته كما لا يعي أي ذكر آني للمحتوى حيث تكون الكلمات المستقرأة والمزعجة[1] تشير إلى الدوران أو التقاط الحساسة (ملاحظة أشار إليها زياهن) .

وهكذا اعتقد يونغ بعد أبحاثه الأولى في سنة ١٩٠٣ ، أن العقدة هي مجموعة ذكريات أو أفكار مشحونة بالانفعال ، مجموعة تشكل مشكلة شخصية حميمة بالنسبة للفرد ، يحاول أن يدافع ضدها ، وهو لا يعي ذاته ، وتعتبر غالباً بكل بساطة سراً مزعجاً (مضر ، مقلق ، يُشعر بالنقص وبالذنب) مكبوتاً في وعي الفرد الآني لكنه حاضر بدقة في ذاكرته إذا ما تكلّمنا معه . فالأمثلة التي يقدمها في كتابه (الانسان في اكتشاف نفسه الفصل ٤) هي : قصة قديمة تدور حول قتال

(١) راجع كتاب جانك ، الآنسان في اكتشاف نفسه تر . فر . ص ١٦٩ .

بالسكاكين كادت أن تقلق إطار مهني . . . مغامرة عاطفية عند أستاذ قديم . . . تخفي قاتل طفل عند أمرأة فتية .

تساءل يونغ عن أنواع العقد ومستوياتها الثقيلة ، فميز بين « العقد العادية » ، « والعقد الطارئة » و « العقد المستمرة » .

بالنسبة « للعقد العادية » شبهها يونغ باهتمامات مسيطرة أو ثابتة . وعندما قارن العقد العادية عند الذكور والإناث لاحظ أن العقد المسيطرة عند النساء هي العقد الجنسية وبصورة خاصة تلك التي تتصل بالحمل والأولاد والعائلة والموقف الزوجي والمسكن ، بينما عند الرجال تسيطر العقد التي تتصل بالمركز الاجتماعي وبالدراهم والنجاح .

تتعلق « العقد الطارئة » بالأحداث النوعية لحياة المعالَج وأمثلة « الأسرار » المقدمة سابقاً هي كلها من هذا الطراز . أدرك يونغ ، بتفكيره بمثل هذه الحالات فعالية رائز الكلمات المجمعة الذي يمكن أن يكون كاشفاً للأكاذيب والجرائم . وقد قام فعلاً بتجارب ناجحة في المجال البوليسي باكتشافه المذنب بين المتهمين في بعض السرقات في المستشفى .

أما « العقد المستمرة » فإنها تدخلنا ، كما يقول ، في الأمراض العقلية . ففي الهستيريا مثلاً هناك عقدة واسعة وصلبة متصلة بصدمة قديمة يدافع ضدها الأنا بشكل يائس . وفي الجنون الباكر (أو البلاهة المبكرة) ، يكون الأنا غارقاً في عقدة أو عدة عقد خطيرة مترابطة بعضها ببعض بشكل صلب .

III - فرويد

كان عمر يونغ ٢٩ سنة في العام ١٩٠٣ . عندما وضع فرويد في مجرى خبراته ومفاهيمه واهتم بها أكثر عندما أنهى كتابه : « علم النفس المرضي للحياة اليومية » (نشر سنة ١٩٠٤) . لا بد لسيكولوجيا العقد النفسية من أن تدخل في علم النفس المرضي للحياة اليومية » ، لكن فرويد على الأرجح لم يكن مسروراً لسببين : الأول لأن يونغ لا يتحدث عن المشكلة التي يعتبرها فرويد المشكلة الوحيدة وهي أساس كل أنواع القصاب « الأحاسيس الأوديبية » ؛ والثاني لأن جانك تحدث عن بعض العقد التي لا تتصل تماماً « باللاوعي » المحدد من قبل فرويد .

هكذا كان فرويد في سنة ١٩٠٣ يرغب في التخلص من كلمة « عقدة » ، ففي كتبه اللاحقة حلت كلمة عقدة أوديب مكان تعبيره السابق « الأحاسيس الأوديبية » . فضلاً عن ذلك ففي محاضرة أمام القضاة سنة ١٩٠٦ (محاضرة نشرت في تجارب في التحليل النفسي التطبيقي تحت عنوان « التحليل النفسي ومؤسسة الأحداث في القضاء بطريقة تشخيصية) عاد فرويد إلى اختبار الكلمات المجمعة ، دون ذكر جانك ، وقام بتمييز سبب الفوضى بوضوح عن المجرمين (« سبب سر يعرفه ويخفيه عليك ») ، كما مـيَّـز سبب الفوضى عند المصاب بالعصاب (« سر يجهله ويخفيه على نفسه ») . وهكذا نفى

أخيراً قيمة رائز الكلمات المجمعة ، بغية اكتشاف أسباب العصاب النفسي العميقة.، لأسباب ، تعود حسب رأيه إلى عقدة اوديب ، وهي تختلف كثيراً عن العقد التي اكتشفها بوينغ .

ولا ننسى ، تباعاً ، أن يونغ أعاد الضربات . ففي سنة ١٩٤٣ خلال محاضرة (الانسان في بحثه عن نفسه) أشار إلى أن اكتشاف عقدة أوديب من قبل فرويد عند مرضاه تعود إلى العقد الشخصية عند فرويد (« إن نظرية فرويد هي وصف أمين للتجارب الحقيقية التي وجدها خلال بحثه عن العقد . بما أن هذه النظرية لا يمكن أن تظهر إلا بالحوار فإن تحضير المفاهيم يبقى متأثراً بعقد الشريكين على حد سواء . . . لا يمكن لأي عالم نفساني إلا ويكون في حالة يقوم بها بتجريد عقده الخاصة ») .

نعود إلى فرويد ، ونتبنى كلمة « عقدة » ونعتبر « عقدة أوديب » على أنها « عقدة العقد » ، فقد وجه سير سيكولوجيا العقد في اتجاه جديد .

إن عقدة أوديب ، باديء ذي بدء ، هي مشكلة أحاسيس قوية تشكل الحياة العاطفية عند الطفل بين ٣ و ٥ سنوات ، وهي تعتبر (بشكل صوري) نوعاً من المزيج مركب من جهة من رغبات حب الولد لأحد والديه من الجنس المعاكس ومن جهة ثانية من عدوانية حسودة مع رغبة في الموت نحو أحد الوالدين من الجنس نفسه (أي جنس الطفل) .

للعقدة أشكال مختلفة ؛ تكلم فرويد عن « الشكل الايجابي » عندما تكون العقدة عقدة الصبي الذي يريد قتل والده كي يتزوج أمه (قصة أوديب الملك الذي استخلص منها فرويد إسم العقدة) أو عقدة الفتاة التي تتمنى اختفاء أمها لتتزوّج أباها (بالتناظر تطلق عليها إسم « عقدة الكترا ») وتكلم عن الشكل السلبي أي عندما يحدث العكس ويتعلق الطفل بأحد الوالدين من جنسه ويكره الجنس الآخر .

حسب رأي فرويد ، يمر كل الناس ، (خلال هذا العمر) بهذه العقدة مهما كانت حضارتهم التي ينتمون إليها . فهذه العقدة تلعب دوراً أساسياً في بناء الحياة الانفعالية . وعلى كل فرد محاولة حل عقدته وبالطريقة التي يحلها تتميز شخصيته بشكل دائم . إذا كُبتت بدون حل ، فهذا يعني أن العقدة هبطت في اللاوعي وبذلك تقوم بتغذية كل أنواع الاضطرابات المرضية في الشخصية ، وكل أمراض الأنا وكل « العقد الصغيرة » التي تعترض الحياة اليومية حيث تُعتبَر كلها بأنها مسائل تتشعب منها .

لماذا تتعرَّض هذه العقدة للكبت أو لعدم الحل المناسب (مشكلة الأحاسيس المتناقضة وجدانياً والحادة ، بوتقة الشخصية) ؟ من جهة لأنها رغبة محرَّمة ورغبة في الاجرام ، تتجاذب فيما بينها ، المحظر الاجتماعي في ارتكاب المحرَّمات ، وعقدة الوقوع في الذنب الاجتماعي من الرغبة في القتل ، ومن جهة ثانية لأن تعابيره البريئة الساذجة منذ البداية تحدث ردود فعل عند الأهل ، فتولد الحصر

النفسي . هذا الحصر له نتائج ، حوالي عمر الخامسة من شأنها طمس العقدة في اللاوعي ، أو كبتها ، مما يبشّر بمرحلة تدعى مرحلة الكمون . وعندما تتفتح الغرائز الجنسية في المراهقة ، تعود العقدة للظهور من جديد ، هنا تأخذ مصيرها النهائي لتوجيه الرغبات الجنسية للفرد الراشد .

وقد تم اكتشاف عقدة الخصاء ، ووصفها من قبل فرويد سنة ١٩٠٨ بمناسبة تصوراته لحالة « هانز الصغير » . وابتداءً من هذا التاريخ ، وخلال أبحاثه المختلفة ، أصبحت عقدة الخصاء مرافقة لعقدة أوديب .

ولنقل بمجال أوضح أن عقدة الخصاء أصبحت مرتبطة ، في فترة معينة ، بالجذع الناتج عن عقدة الذنب المتولدة من عقدة أوديب . فالخوف من العقاب الناتج عن تحقيق الرغبات المذنبة ، يولد عند الصبي استبهام خصائه من قبل الأب (بقطع العقد التناسلي عنده) وعند الفتاة خصيها من قبل الأم (ولقد قطعت لها العضو الذكري الذي تتوهم أنه كان عندها مثل أخيها) . كل هذا يحدث في رأي فرويد في رحلة الطفولة بين ٣ و ٥ سنوات التي تتميز بالاهتمام بالعضو الذكري .

لا يمكن إدراك وحدة عقدة الخصي عند الجنسين إلا على هذا الأساس المشترك : فهدف الخصي ـ العضو الذكري ـ الذي يوحي بأهمية متساوية عند الفتاة وعند الصبي ؛ فالمسألة المطروحة هي

نفسها : الحصول على العضو الذكري أم لا ؟ (لا بلانش ويونتاليس . مفردات التحليل النفسي ص ٧٥) . وسنرى تباعاً شكلاً آخر لفهم عقدة الخصي . ما هو مؤكد ، أن عملية تقبل الفرد لنفسه (لجنسه) وهي أساس تأكيد الذات في المراحل اللاحقة بشكل سوي ، تتم بين ٣ و ٥ سنوات وهي ترتبط من جهة بالناحية التشريحية بالنسبة للجنس ، ومن جهة أخرى بنظام العلاقات العاطفية التي تحصل خلال المرحلة الأوديبية .

المهم في الموضوع هو موقع هاتين العقدتين (أوديب والخصي) في النظرية الفرويدية التي تعطي كما نرى رؤىً جديدة بالنسبة لما قاله سابقاً يونغ . أن عقد الحياة العادية هي مظاهر متطورة أحياناً لهذه المشاكل الكبيرة للحياة العاطفية القديمة وللطريقة التي تطورت بها . لا يمكن تصفية العقد الصغيرة إلا بعودة الطبيب المعالج إلى المنابع الأولى التي تبقى هي هي في كل العالم وفي كل العصور : عقدة أوديب وعقدة الخصي . وهكذا فإن عقدة النقص مثلاً ، تصبح شكلاً من أشكال عقدة الخصي التي لم يتمكن صاحبها من اجتيازها ؛ فالمخاوف والأحزان وأنواع الهلع . . . كلها ليست سوى تحولات من الخوف من الخصي مرتبطة بالشعور بالذنب الأوديبي ؛ إحدى أشكال النارسيسية تصبح التأكيد المنتصر للجنس كردة فعل لتهديدات عقدة الخصي .

قام المحللون النفسيون بعد فرويد ، بتركيبات ذكية دون الحاجة لأي دليل واستناداً إلى المفهوم الفرويدي للاوعي وللأنا الأعلى

ولميكانيزمات الدفاع عند الأنا ولعقدة أوديب ـ الخصي المزدوجة ، قاموا بتفسير كل أنواع التصرفات المبتذلة والمتكررة في الحياة العادية وكل أنواع « الانفعالات » و « الارتباطات » .

فالانسان الثوري ، مثلاً ، هو مخلوق لم يستطع اجتياز عقدة أوديب ويعمل على تحويل عدوانيته (الموجهة أصلاً ضد والده) إلى عدوانية ضد السلطة المتكونة ، كل ذلك بغية اجتياز عقد خصيه وتأكيد قدرته (بواسطة عضوه الذكري ، من هنا ميله دائماً إلى اقتحام شيء ما) . فالراهب المتحبِّس ، الذي يعتبر نفسه مخصي تماماً ، أقلع عن مجابهة والده واتحد مع أمه (الكنيسة) وانسحب من أحشاء أمه نهائياً .

نضيف هنا تعليق ضروري لتوضيح الاعتراضات على نظرية فرويد ويونغ فيما يتعلق بالعقد ، لم يتردد هذا الأخير ، كما رأينا ، عن الكتابة بأن فرويد أنزل على مرضاه وفي نظريته السيكلوجية العامة عقدته الخاصة التي كانت عقدة أوديب . فقد أكّد سنة ١٩٠٩ ، في فترة كان يدخل خلالها رسمياً في جمعية التحليل النفسي ، إنه بتطبيقه رائز ترابط الكلمات على عائلات تفاجأ بتشابه الاجابات عند الآباء والأبناء ، وعند الأمهات والفتيات ، مما يشكل ، حسب قوله ، تطابقاً عادياً (دون الحاجة إلى التكلم عن الحل الأوديبي) ، تطابقاً قد يدوم طوال الحياة وقد يحدّد المصير . إنها عقدة أوديب التي تشكل شذوذاً وتكوّن حالة من العقدة « المستمرة » في حالة مرضية كاملة ،

لكنها ليست مرضية أكثر من صدمة نفسية مدرسية خطرة بالنسبة لتلميذ في عمر ١٣ سنة . . .

لا يمكن للتوتر الحاصل بين فرويد ويونغ إلا أن يزداد . وقد تمَّ الانفصال النهائي ، كما هو معروف ، سنة ١٩١٣ .

IV ـ أدلر

إحدى الاستخدامات الشعبية لكلمة عقدة هو « عقدة النقص » . ويُفهم عامة بذلك عقدة الخجل من الذات ، أي أن الفرد يعي بنوع من العجز (الصحي ، أو الذهني أو الاجتماعي) أو شعوره المزعج بعدم الكفاءة أو بتأكيده بأنه ليس على المستوى اللازم وأنه معرَّض للفشل . . . كل ذلك يجمع إليه اعتقاده بأن الآخر هو حكمٌ حقود ويهزأ به ؛ نستطيع القول بأن أدلر هو « أب » لعقدة النقص هذه .

إنطلاقاً من ملاحظة بيوفيزيولوجية صادقة : قدرة التعويض التي يمتلكها جسم حي ناقص ، استخرج الفريد أدلر منذ سنة ١٩٠٧ القانون العام الذي على أساسه ينمو كل فرد معاق أو مجروح أو ناقص أو محروم من إحدى وظائفه الحياتية نمواً طبيعياً كي يحيا بنشاط متزايد يسعى من خلاله إلى التعويض عن نقصه وحتى تعديله إلى أن يصبح أخيراً أعلى ممّا كان يشكل عقدة نقصه .

يُعتبر الانسان الحيوان الوحيد الذي لا يكون عنده القدرات الكافية عند الولادة بين كل الحيوانات ، فتنمو عنده « إرادة القدرة » التي هي منبع التعويضات لكل هذه النواقص والمحرِّك الوحيد للوجود البشري .

أول شعور عند الولد بوعي نفسه عند خروجه من المرحلة السحرية واصطدامه بالعالم والواقع ، هو شعور بالنقص لا متناهٍ بكونه صغيراً ومجرداً من أي سلاح دفاع ، ضعيفاً ومجروحاً . إلا أن هذا الشعور بالنقص يؤدي عادة إلى إرادة تعويضية للقدرة ، وهذه الارادة تحرِّك كل المشاريع اللاحقة عند الولد وعند الراشد .

كيف يتم الانتقال من الشعور بالنقص إلى عقدة النقص . ؟ كتب أدلر في كتابه المعروف « معنى الحياة » (ص ٨١) :

لقد تعرفت منذ زمن طويل إلى حقيقة عقدة النقص في كل حالات الفشل النموذجية . ولكنني جاهدت طويلاً لإيجاد حل للمسألة الأكثر أهمية ، للتعرف إلى كيفية ولادة عقدة النقص من الشعور بالنقص واستنتاجاته . تقع هذه المسألة ، حسب ظني ، في مركز ثانوي من أبحاث الآخرين ، دون أن تجد لها حلاً . إن عقدة النقص هي الظاهرة المستمرة لنتائج الشعور بالنقص وثبات هذا الشعور . يمكن تفسير ذلك انطلاقاً من نقص قوي بالشعور الاجتماعي .

يطلق ادلر على « الشعور الاجتماعي » فكرة الانفتاح على الغير وعلى العلاقة واجتياز الذات والثقة بالمستقبل ؛ هذا هو الشعور

بالواقع بالنسبة له والحس الاجتماعي والحدود الأخلاقية للارادة والقدرة . والعكس (النقص في الشعور الاجتماعي) ، هو الانطواء على الذات ، والتمركز حولها ، والعزلة ، الشعور بالرفض الاجتماعي ، وذلك نتيجة تربية لم تؤدِ إلى المحرضات الاجتماعية السوية أما « بتدليل » الطفل ضمن دائرة ضيقة حيث يختنق نفسياً ، أو بإهماله ورفضه .

إن قلة الانفتاح على الحقيقة تصدم وتثبِّت الشعور بالنقص ؛ الذي يصبح تدريجياً عقدة نقص . يتم البحث عن التعويض ، حينئذٍ ، في ما هو رمزي أو خيالي ، ويصبح غير واقعي وغير متكيف . من هنا يتولد الشعور بالتعديل نحو عقدة التفوق (غرور والبهلوانية) ، حركات الافتخار والسيطرة عند الخجولين عندما يكونون وحدهم أمام المرآة . . . من هنا يتولد الحقد والعدوانية والسرقة والاجرام ، أفعال الثأر والانتقام بإرادة القدرة وبدون شعور اجتماعي .

ترتبط كل العقد بعقدة النقص وبميكانيزمات التعويض . إن عقدة أوديب هي أقل أهمية ، حسب رأي أدلر ، من اكتشاف الطفل لقدرته في السيطرة على أحد أفراد العائلة الأكثر تسامحاً ، وصراعه المتكتِّم أو المنفتح كي ينتصر على الغير (الحد من قدرته) . نعتبر عقدة الخصي أدنى معاني النقص ، مع النتيجة الطبيعية بالفشل وبعدم القدرة أمام المصير .

إن الأحاسيس المزمنة بالذنب وبعدم القدرة ، وبعدم الاكتمال ،

وبعدم الكفاية ، وبالفشل ، وبعدم الضمانة ، والمجابهة ، وكل متغيراتها المتعددة ، ليست سوى تحولات متعددة لعقدة النقص التي يجري التعويض عنها .

من المؤكد أن مثل هذه المفاهيم لم ترضِ فرويد مطلقاً . فقد حدث الانقطاع منذ سنة ١٩١١ . وقد فسَّر فرويد انتقادات أدلر وكأنها نتيجة عدوانية ضد الأب ، إذن نعود إلى عقدة أوديب غير منتهية مع تبديل وجهة السلطة . وفسَّر أدلر الاتهام الذي أطلقه عليه فرويد كإشارة إلى إرادته في السيطرة بلا مثيل . . . وكل من النظريتين لاقت مصيراً متبايناً عن الأخرى .

قبل أن نتابع قصة سيكولوجيا العقد ، ينبغي تسجيل نقطة مهمة من نظرية أدلر . دون أن يكون هناك استمرارية مهماً جرى سابقاً أو مما سيحدث ، إنما يقربنا ذلك من تعريف صحيح للعقد . حسب رأي أدلر ، لكل شخصية « خط حياة » أو « وهمٌ موجه » أو استراتيجية معينة في وجوده وقدرته على السيطرة الحقيقية أو الخيالية . ليس المقصود تتابع المقاصد الواعية النسبية وأهداف التلاؤم مع الواقع إنما المقصود تتابع الشكل الثابت والواعي للعمل ولاستخدام وسائل العمل . بالنسبة لأحدهم يقول ش بودوين (متحدثاً عن هذا « الوهم الموجه ») أن ذلك ينبغي أن يكون دائمًا ودوماً الأول . . . بالنسبة لآخر يكون ذلك بجذب وتحويل شكر الآخرين بالافتتان . . . وبالنسبة لثالث قد يكون ذلك بالتمارض وإبطال مفعول النقد بتمركز المحيط بكامله حول الذات » . تتكون مثل هذه

الأساليب خلال الطفولة ، وبمناسبة المواقف الحية والمؤثرة التي تأخذ معنى بالنسبة لها ، من المعروف أن الهدف الأخير يكمن في السيطرة على الموقف ويعتبر ذلك التوجيه الثابت الأساسي .

ففي حالة يصفها أدلر مطولاً في كتابه « معرفة الانسان » (ص . ٧٤ ـ ٨١) يفصّل عملية الاعداد في وصف حالة واقعية عند امرأة فتية : حدثتني العميلة بأنها التقت بصديقة لها تعيسة جداً لأن زوجها أقام معها مشهداً حاداً لأنها تأخرت في إعداد الطعام . وأضافت العميلة : إذا لم أكن مخطئاً ، فإن طريقتي هي الأفضل ، لم يستطع أحد أن يوجه لي ملاحظة طالما أكون مثقلة بالأشغال منذ الصباح حتى المساء . . . إذا أراد أحد أن يخصص حياته كلها للحصول على الحنان أو على الاعتبار والتقدير أو على الشوق ، لا يمكن أن يكون أكثر قدرة ؛ فالوسيلة التي تكافح في إثارة الارهاق ليست عاطلة للغاية لأنها لا تستطيع فقط أن تبعد عنك كل انتقاد ، بل لأن المحيط لا يعود يتقبلك إلا بهدوء ثابت وبمساعدتك ، وبتجنيبك كل ما يمكن أن يزعجك » . بالعودة إلى ماضي هذه العملية ، يصف أدلر كيفية تكوين هذه الستراتيجية التي أصبحت نسبة وجود . كان هناك بالأصل الحسد بالنسبة للأخ والأخت الصغيرة (كانت الكبيرة بالنسبة لثلاث أخوة) حيث كانت تعتقد أنها أفضلهم . كانت تهتم بأعمال أخيها المدرسية الرديئة ولا تهتم بدروسها التي كانت جيدة بشكل دائم . وبذلك أصبحت تلميذة رديئة مع علامات متدنية عن أخيها (« وذلك بغية اجتذاب انتباه أهلها عليها) . لكن هذه الخطة لم

تنجح مع الأهل لأن تدني العلامات مع سلوك الطفلة الثالثة الصغيرة استقطب انتباه الأهل . وعند ذلك اتخذ الصراع شكلاً آخر وبأسس مختلفة . وبعد تطبيق التجربة والخطأ لعدة مرات وصلت إلى الهدف : (فالفشل لا يدخل بالاستراحة مطلقاً في هذا النوع من التطور . فلا أحد يستطيع أن يتحمل فشل تأمين السرور للقلب . نتج عن ذلك انفعالات جديدة ، وجهود جديدة لم تتوقف عن المشاركة في تكوين هذه الميزة » (ص ٨٠) . فالنجاح يأتي مع « الميل للوقوف دائمًا أمام الآخر بشكل مرهق ومثقل بالمتاعب » في الأصل « كان المقصود إجبار الأهل على الاهتمام بإبنتهم الكبيرة أكثر من أخيها والابنة الصغيرة ، واتخاذ موقف ضد القساوة التي يقفها أحياناً الأهل ضد الكبيرة . بعد استيعاب هذا الموقف منذ ذلك الحين ، استمر هذا الوضع حتى هذا اليوم . وها هي تطبقه الآن على زوجها . . . » أنظر كيف يتم ذلك قال أدلر « بوصل نقطتان من الوجود النفسي بين بعضها البعض عند الفرد ، نكتشف خط حياته ، والتوجيه الحدودي لطريقته في الوجود والعمل ، والشكل الواقعي (أو التغييرات العملية) لكل أنواع السلوك .

وننوه هنا أن أدلر لا يطلق كلمة « عقد » على هذه الثوابت (نموذج الحاجة للارهاق والبنية الشكلية الثابتة لأنواع السلوك نحو الموقف الذي يُشبع) . بالنسبة لأدلر تبقى العقدة النفسية عقدة نقص مع أهمية لدور إرادة القدرة التعويضية . ولنقل فوراً ، بهذه المناسبة أن مثل هذه التوجيهات المسيطرة على السلوك ، مجتمعة مع السيناريو

المتكرر في سبيل تحقيق إشباع ذاتي قيِّـم ، يمكن اعتبارها لاحقاً عقد نفسية .

أخيراً يجب ملاحظة أمرين : ١) هذه الثوابت الشكلية للسلوك يمكن أن تكون دفاعية كما يمكن أن تكون تملكية ، فهي تحاول تجنُّب هنا الموقف الذي لا يطاق والذي أوصله إليه موقف مرغوب فيه ؛ ٢) هذه المشاكل تعتبر غير واعية : « يجري التطور كله أو لأكبر جزء منه في الظل . . . لنحاول أن نتكلم عنها مع الشخص المعني ، نلاحظ أن الحديث يتم بشكل صعب للغاية ، لأنه يتوق للتحدث عن شيء آخر ، وقطع كلامه بسرعة كي لا يقاطعه أحد . . . وكل من يحاول رفع القناع عن اللعبة التي يلعبها يؤدي ذلك إلى ازعاجه فتقوم عليه مقومات الدفاع كلها (المرجع السابق ص ٨٩) .

٧ - ش . بودوين

قدَّم العالم النفسي السويسري شارل بودوين ، الذي استوحى من مفاهيم يونغ ، قدَّم مشاركة فعالة في سيكولوجيا العقد وذلك في كتابه « التحليل النفسي وروح الولد » (كتاب بجزئين - عنوان الجزء الأول العقد - منشورات دي لاشا ونيستله الطبعة الأولى ١٩٣١) . يستحق كتابه فرض اقتراحات جديدة وتوضيح المشكلة .

بالفعل هناك مقاطع عند يونغ من الصعب تركيبها للوهلة الأولى . يقول في بعضها : « العقد النفسية هي إحدى المظاهر الحية للنفس إذا

كانت متطورة أم بدائية » (الانسان في اكتشافه لنفسه. ص ٢٠٥) « أن ظاهرة العقد النفسية هي ظاهرة عالمية لا بل ظاهرة طبيعية في المجتمع » « العقد هي الوحدات الحية للنفس اللاواعية » (ص . ٢٠٦) العقد هي ضرورات حية (ص . ١٨٢) « لا يستطيع أحد وضع تجريد لعقده الخاصة . . . لأنها تشكل جزءاً لا يتجزأ من تركيبه النفسي » ص (٢٠٨) بالاضافة إلى ذلك وفي مقاطع أخرى يقول : « عندما تتهيج عقدة معينة عند فرد يصبح عرضة لصدمة خارجية تجعله يقضم الغبار وتغرقه وقتياً في حالة ذهنية غامضة » (ص ١٤٦) « العقد هي طفيليات مدمِّرة ، أو إلتهابات أو ورم خبيث تتولد دون معرفة الوعي » . (ص . ٢٠٥) عندما تسيطر عقدة معينة علينا لا نبقى كما نحن أبداً » ص (١٧١) « قد تغرقنا عقدة قوية زمناً طويلاً في حالة من عدم الحرية ومن الأفكار الملحة وذات أفعال جبرية » . (ص . ١٩٨) .

قد نفهم هذه الأفكار بشكل أفضل إذا تذكرنا أن يونغ يميز بين « العقد الطبيعية » و « العقد الطارئة » و « العقد المستمرة » هذه الأخيرة تعرّض صاحبها لحالة مرض فقط .

هذه الفكرة بالذات حاول بودوين تأكيدها في كتابه المذكور (وفي غيره مثل تحريك الطاقة ، النفس والفعل ، الغريزة والفكر) . يميز العقد الطبيعية ويعتبرها « أعضاء النفس » والعقد الشخصية التي تصبح أمراض السابقين .

وهكذا عندما تبرِّر الناس في المجتمع عقدها ، منذ أن أصبحت

السيكلوجيا معروفة ؛ تفعل كما تفعل بأوجاعها ولكن ذلك ليس مماثلاً تماماً . هذا يعني الخلط بين المرض النفسي والعضو في الجسم . فهذا يعني كما لو أن عنده مرض في القلب أو في الكبد . وقد تكون العقد غير مسببة للمرض إنما بعضاً من تغييراتها أو تضخمها .

ليست العقد الطبيعية (أو البدائية) بالنسبة لبودوين سوى زمر من الميول (« رزمة من الميول ») موجودة عند كل الناس على الأرض وتلائم كل توجيهات الطاقة النفسية[1] : ١) اهتمام بالشيء (مع أنواع السلوك المناسبة التالية ، الوصول ، التأمل ، المعرفة ، الملكية ، التجنب ، تخريب الشيء) ؛ ٢) اهتمام بالأنا وتقييمه (المقارنة مع الغير ، التأكد ، الادعاء ، التعرف وتعريف الآخرين إليه ، التمركز في شبكة من العلاقات الزمنية والمكانية) : ٣) الاهتمامات الشخصية الخاصة . الرغبة بالأشياء الاشباعية المحددة أو الفئوية ، أو الرغبة في المواقف الاشباعية المتخصصة ، رغبات تتناسب والمراحل الطبيعية للنمو وللتصرفات الملائمة (مواقف ونماذج أفعال وردود أفعال) .

هذه التوجيهات الكبرى تأسست على « غرائز طبيعية » ، وعدة غرائز تمتزج في كل فئة من الميول . وكل غريزة تتشعب في هذه الفئات (ص . ١٧١) . هذه الغرائز الطبيعية هي ، الجنس ، الارادة ،

---

(١) كل ما نطلق عليه اليوم « محرضات » متشركة

القدرة ، الغريزة الاجتماعية وغريزة حب البقاء . . . الخ .

يتضح من كل ذلك أن العقد النفسية وعقد الميول تتشابك فيما بينها وتتشعَّب إلى غرائز وتكوِّن مستوى وسط بين مستوى الغرائز غير المعروفة ، ومستوى الأحاسيس الواعية .

« أقول بصراحة وبكل إرادتي ، يقول بودوين : إن الطاقات الغريزية قبل أن تغذي أحاسيسنا وكل نفسنا العليا ، يجب أن تجتاز منطقة العقد كمرحلة التقاء لها . هنا تنقسم طاقات كل فرد وتتحلل إلى عناصرها ومن المستحسن العودة إلى إعادة تجميع غير متوقعة لكل هذه العناصر . وتتداخل طاقات عديدة تأتي من مصادر مختلفة في إعادة تركيب كل منها بفسيسفاء جديدة (العقد) وهكذا تبدو الغريزة نفسها متمثلة في كل هذه الزمر » .

تلك هي أشهر « أعضاء النفس » والعقد الشخصية » تُعتبر أمراض هذه الأعضاء حسب رأي بودوين (مبالغات ؛ مضاعفات ، تضخمات) لميل واحد أو لعدة ميول .

لنأخذ مثلاً واحداً (متخذ من كتاب بودوين ص ـ ٥ ـ ٥١) : الفضول هو تحريض طبيعي (من فئة الاهتمام بالشيء) كما أن لذة البحث والمعرفة هي غريزياً من إحدى أنواع الفضول ، تلك التي تتعلق بالجنس الآخر (تكون طبيعية . ها هو مثل إيزدورا الفتاة الصغيرة التي لاقت في طريقها الممنوعات والعقوبات مما أيأس حشريتها وجعلها تقع في عقدة الذنب . فكل عقدة تنمو تكون أساساً

اهتمام متهيِّج ومسيطر بالنسبة للمعرفة وكشف الأسرار والحجج بشكلٍ عام والأشياء الجنسية بشكل خاص . فهي ترغب أن تعرف وأن تُعرف ؛ فهي تعبد الحجابات الشفافة وترغب بالرقص عارية تحت قماش خفيف . وهي تخرج بألبسة مثيرة ؛ بالاضافة إلى ذلك أنها مشدودة بشكل لا يُقاوَم إلى العجائب والأسرار ، فهي تحلم بأن تكون « المبتدئة » بالمجتمعات السرية . . . فهي تقع في عقدة يطلق عليها بودوين إسم « عقدة الذهول » .

لندخل الآن في لائحة العقد المرضية التي يصفهابودوين والتي تنقسم إلى أربع فئات أساسية هي :

١ ـ عقد الشيء

أ ـ عقد قايين . ـ وهي شكل مرضي من أنواع الرَّمي . العدواني ـ للشيء المزعج أو غير المستحب ، فعقدة قايين هي نوع من الحسد الأخوي الذي أصبح نوعاً من مبدأ السلوك الاسقاطي أو الرفضي أو عدم التقييم أو العدوانية ، لكل منافس حقيقي أو مفترض .

ب ـ عقدة أوديب ، أو الامتلاك الحصري لأحد الأهل (عادة للأكثر تسامحاً أو للجنس الآخر مع خجل بالنسبة للآخر (الأقسى أو صاحب الجنس نفسه) .

ج ـ عقدة الهدم . . وهي الرغبة في السيطرة أو الاتلاف أو

التلويث أو التوسيخ أو بالمعنى المعنوي ، تخريب أو النقد السلبي أو تهديم . هذه العقدة قد تصل إلى السادية (وهي الرغبة في جعل الآخرين يتألمون وذلك بإعطائهم القصاصات أو العقوبات) أو الماسوشية (وهي انحراف جنسي يلتمس فيه المرء اللذة بالعذاب أي عذاب الذات) .

د . عقدة الذهول ، وهي رغبة مفترسة في رؤ ية الآخرين وفي أن يُرى من الغير ، أن يعرف ويتعرف ، بأن يكون في مجرى كل الأسرار والعجائب (نظرية ـ إظهارية) .

٢ ـ عِقَد الأنا

أ ـ عقدة التشويه وهي تعني بالنسبة لبودوين ما تعنيه عقدة الخصي عند فرويد وعقدة النقص عند أدلر ويضاف إليها عقدة الذنب .

ب ـ عقدة ديانا ، عقدة الفتاة التي ترغب في أن تكون صبياً ، مصدر الاستحقاق الأنثوي ، ورفض الأنثوية والأمومة وكل الصفات المؤنثة وللدور النسائي .

ج ـ عقدة الولادة وهي تثير شكوك حول الأصل والتطابق ، شكوك شخصية قد يصبح لها معنى وتنعم باستجوابات حول أصل الانسان أو تأخذ شكل أحلام الولادة أو إعادة الولادة من جديد (حلم بحياة جديدة) أو تغيير الوجه أو ولادة فكرية جديدة) .

٣ ـ عقد المواقف

أ ـ عقدة الفطام مع ما تشحنه من عواطف مسيطرة كالشعور بالاهمال والنفي والكبت والحرمان وترك الطفولة السعيدة .

ب ـ عقدة التقهقر أو تعديل المواقف أمام صعوبات الحياة ، البحث عن المعونة والبحث عن ملجأ ، والهرب إليه ، التراجع والانطواء على الذات والعزلة . عقدة الحماية هذه يمكن أن تغذي أنواع الهروب في الخيال أو الادمان على المخدرات السامة .

ج ـ عقدة نارسيس أو النارسيسية أو الرضى بالذات أو حب قوي للذات .

إن البنية التي أطلقها ش . بودوين على العقد رائعة ، وهو يدلنا بذلك أن العقدة أصلاً هي ميل (أو مجموعة ميول) طبيعي لكنه يصبح مرضياً بسيطرة قوية يتخذها على مجموعة تصرفات الحياة النفسية مستقطباً كل أنواع السلوك ومبعداً الأنا عن كل معنى الحرية والمرونة .

إلا أن هذا التضعيف لا يدوم طويلاً . فعقد المواقف لا تغطي كل مراحل التطور ولا كل ردود الفعل التي بقيت سوية حتى عمرٍ معين إلا أنها أصبحت مرضية ومعقدة في عمر الرشد . من ناحية أخرى ، وهذا أكثر تعبيراً ، إن الأمثلة العيادية التي حاول مناقشتها لا تتلاءم مع الصورة أو بالأحرى تجُبر المؤلف على تنظيم أفكاره بحيث يصبح التضعيف غير مفيدٍ .

فهو يقدم لنا عقدتين شخصيتين نموذجتين (ص ١٥٠ - ١٥٩) من شأنهما تمثيل ملاحظاته بشكل حسي فتلتقي عدة عقد » . هذا النوع الجديد من العقد يمكن تحديده « بمثير نموذجي » وتقول بوضوح أكثر « لازمة » « أنا مبعد » هي إحدى الصيغ المعروفة من هذا النوع . ولتفسير ذلك استدعى بودوين ؛ عقدة قايين + استرجاع الحب + نوع من العناد وبعض مخبرات الطبع + عقد الأنا . إلا أن هذه العقدة (المنتشرة بكثرة) ليست بحاجة إلى مثل هذه البنية الاصطناعية . فهي ذاتها متعلقة بالوجود وبالعلاقات التي تتكلم عنها اللازمة« أنا مبعد » أو « لا أحد يحبني » .

والمثل الثاني المذكور هو عقدة « المرأة الضحية » . عند رجل معين ! فيما يتعلق بعلاقة الجنسين ، المقصود نوع من الاستيهام « ذكر سفّاح وأمرأة ضحية » فيؤثر ذلك على السلوك لأن الاستيهام الحاصل يؤدي إلى رفض الأنا الجنسي ومن ثمّ إلى عدم القدرة الجنسية . وقد ذكر بودوين التجارب الطفولية المحددة التي تمثلها هذه الفكرة .

تقدم هذه الأمثلة عقداً واقعية ، وأشكالاً يمكننا اعتبارها عقداً بسيطة ومباشرة وهي لا تدخل حتماً في التصفيف المخضّر سابقاً . بالأساس يقترح تصفيف بادوين « عوامل للعقد » عوامل غير بسيطة بحد ذاتها من شأنها أن تتيح إعادة بناء كل أشكال العقد الفردية . بهذا يمكن اعتبارها نوعاً من الكيمياء السيكومرضية .

لكن مشاركة بودوين الشخصية هي غالباً تصفية للمجال العيادي

وذلك بفضل التمييز (موقفاً لجانك) بين العقد « الطبيعية » (ميول ؛ ليست سوى مثيرات إنسانية عالمية) والعقد المرضية والأمراضية التي أطلق عليها « العقد الشخصية » .

سنهتم فقط من الآن وصاعداً بالعقد الشخصية » .

وأخيراً إذا كان هناك تضخم في الميل الذي نجده بشكل سوي عند كل الناس وبدرجة متوسطة (ومكانه في المجموعة المنسجمة من الميول) ، أو باندماجه أصلية للميول المرضية ، وهل يتم دائمًا التدقيق بالعقدة الشخصية كعقدة القوى القادرة غير الواعية جزئياً مشيرة إلى خبرة سلوك الفرد الذي ينظم مفاهيمه وتصرفاته ومتحولاً إلى لازمة وجوده الشخصي .

إذا تخلصنا من همّ الحاق مثل هذه البنيات لهذا النوع من « تشريح النفس » ، يبقى أن كل شكل ثابت نموذجي للفكر وللسلوك غارق في اللاوعي وأصبح مجبراً بالنسبة للأنا ، يعتبر عقدة نفسية . إنما في هذه الحال يصبح لكل فرد عقده الخاصة وبذلك يصبح من غير الممكن وضع لائحة تامة بذلك .

VI ـ نحو تكاثر العقد

كل بنية نموذجية للسلوك ، تتميز بطابع الالزام للأنا (أي أقوى من الأنا) أو تكراري (أي السيناريو نفسه دائمًا) ، كل منها تتسم

باسم بطل أو بكلمة ممثلة لذلك وبذلك يتم تسجيل مختلف العقد .

قام كل من المحللين النفسيين الفرويديين والمحللين اليونغيين (نسبة إلى يونغ) والأدليريين (نسبة إلى أدلر) مع ما قدم لهم من تعزيزات جاستون باشيلار (١٨٨٤ - ١٩٦٢) مع كتبه النفسية (التحليل النفسي للاندفاع - الماء والأحلام ، الأرض وأحلام الارادة . . . الخ) . قام كل من هؤلاء بوصف وتسمية العقد كل حسب رأيه . ولا يمكنني أن أعطي هنا إلا نوعاً من العينية الممثلة لذلك :

- عقدة جوكاست هي ، عند المرأة ، الرغبة في حفظ ابنها بقربها وتخنق ، بحبها المستأثر ، إرادته للاستقلال وتأكيد رجولته كرجل المستقبل .

- عقدة كرونوس ، وهي عقدة الأب الذي يظلم أولاده ويسحق شخصيتهم أو يمنعهم من التحرر . إنها حالة الأب « المفترس » أو « الخاصْي » .

- عقدة الابن الصغير عندما يعارض ويأخذ آراء وأوضاع مقبولة في العائلة ضد الابن الأكبر الذي يتناسب رأيه مع رأي أبيه .

- عقدة بروميته ، وهي عقدة أوديب بالنسبة للحياة الفكرية ، وهي الرغبة في أن نكون أكثر قوة من معلمينا ، وفي اجتياز سرّ قدرتهم ، واجتذابهم ، مع المجازفة بالتعرُّض لغضبهم وانتقامهم .

ـ عقدة أمبيدوكل وهي تعتبر أن النار هي أعظم مطهِّر ، أي في ارتمائنا في النار أو عملية احراقنا تغير نظام الكون الذي نريد أن نكون فيه الموقد الذي يضيء سبل الآخرين .

ـ عقدة الأطلس وهي نوع من الارهاق أي ذلك الذي يتعمد حمل ثقل يسحقه وهو يصارع ضد الوزن الذي تضعه المناسبات فوق أكتافه .

ـ عقدة جوناس وهي الميل في اقتطان الملجأ ، أو الرجوع خيالياً إلى أحشاء الأم ، أو اللجوء إلى حضن محامٍ عند بزوغ أية صعوبة .

ـ عقدة لوهنجرن ، وهي تكمن في محاولة تأمين سعادة الآخرين وسعادة العائلة وذلك بالتخلي شخصياً عن أفراح الحياة والاختفاء عند بلوغ الأهداف .

ـ عقدة الخيانة وهي الميل للبحث عن سلطة قدير والخضوع لها بحاجة الحماية ومن هنا البحث عن محامٍ جديد قدير يستطيع بواسطته صراع الأول وهكذا دواليك .

ـ عقدة خلاص البشر . (أو عقدة يسوع المسيح) وهي تعني اتخاذ الفرد كل أخطاء الآخرين وهمومهم على عاتقه والدفاع عنها بغية التوصل إلى غفرانها وتخليص مرتكبيها من القصاص والفاجعة .

ـ عقدة جهوقا وهي تعني الاعتقاد بأننا أعظم من كل البشر ، والميل باتخاذ موقف بجانب الله عز وجل ، وعلى الاعتقاد بقيمة عظيمة

لكل ما نعتقده أو نفكر فيه أو نعمله .

ـ عقدة تحمل كل المسؤوليات وهو الفرد الذي يعتقد أنه مجبَر بالقيام بكل الأعمال وأنه مسؤول عن كل شيء وهو يضاعف مهماته ولا يترك أي عمل للآخرين .

ـ عقدة بولبكرات وتكمن في القيام بكل ما يمكن القيام به للنجاح ، وعندما يتحقق النجاح يُلغى كل شيء ويُحطِّم . . ومن ثمَّ إعادة هذا السيناريو من جديد .

بقي أن نضع قاموساً للعقد ؛ فقد تناول هذا الموضوع ماريز شوازي في « مفردات التحليل النفسي » الذي بدأ بطبعه سنة ١٩٥٥ ، في مجلة Psyché التي توقفت اليوم .

في النهاية نستطيع أن نتابع (على غرار ما قاله فرويد في كتاب أوديب ـ الملك من سوفوكل) ونقول بأن المواضيع الأدبية الكبرى والشعرية والفولكلورية التي تثير صدى عميقاً في النفس البشرية التي تحلم (كما قال باشيلار) أو تجعلها حالمة ، كل ذلك يتناسب مع العقد الكبيرة . لكننا قد نغامر أو نتطرف في هذا المجال لأن مأساة سوفوكل وضعت لتُعبر عن أن « الانسان هو لعبة القدر » (مهما فعل ومهما أراد ، لا يتخلص من قدره) ، في حين أن فرويد رأى فيه عقدة العقد المحققة بوضوح (قتل والده ليتزوج أمه) .

الفصل الثاني

تعريف العقدة ونسقها الإجرائي

إذا أردنا تجنب الضياع في عقد متعددة ليست ، بالحقيقة من الطراز نفسه ولا من الشمولية نفسها ، ينبغي تعريف هذا الاعداد النفسي الذي يمكن مراقبته ووصف نسقه الاجرائي في ضوء الأساليب السابقة الضرورية ، أي الطريقة التي تتداخل في الوجود اليومي . طبيعياً سوف لا نتكلم إلا عن العقد « الشخصية » بالمعنى البودوني (نسبة إلى بودوين) .

I ـ تعريف

كتب هيسنارد في (العالم المريض بالخطأ ١٩٤٩ ص . ٢٩٨) : « ليست العقد أشياء غريبة موضوعة في أعماق الكائن وقابلة للصعود إلى سطحه ، بل هي أنظمة سلوك حاضرة بشكل دائم (مثل موهبة موسيقية أو معرفة لغة أجنبية لا نستخدمها بكل برهة) . أو بالأحرى هي قطع من السلوك لم تتكامل أبداً . هذه التصرفات المعزولة أو المجزأة تستمر كما وردت تماماً وعلى استعداد تام للانطلاق » .

هذا التعريف الذي يخدمنا كنقطة انطلاق ينوِّه عن عدم تكامل العقدة مع الأنا ، وهذا ما يمكننا أن نسميه « استقلاليته » وعلى هذا الأساس بقي هذا النظام الاستقلالي للتصرفات » قائمًا كما وجد في تاريخ الفرد الماضي قابلاً دائمًا للانطلاق أي تحديد السلوك رغم أنف الأنا . إن ردة الفعل العقدية (أو السلوك العقدي) تظهر دفعة واحدة وهي دائمًا نفسها . وقد سبق لجانك أن أشار إلى هذه الظاهرة . فقد قال في عدة مجالات (الانسان في اكتشاف نفسه . ص . ١٧٦ - ١٧٧ - ١٩٨ - ١٩٩ . .) : تتمتع العقد باستقلالية مميزة ، تشبه مخلوقات مستقلة تحيا حياة طفيلية داخل نفسنا ، « العقدة هي جزء من الشخصية تمتلك مركب متميز وذاكرة خاصة « . . . وعي مجزأ » ، « . . . نفس مجزأة » .

يجب أن نضيف أن الفرد لا يعي أنه معقَّد (ودون أن يعرف أية عقدة) إلا في حالة واحدة : عندما يشعر بكبت ، بشدة أو بحصرٍ في بعض المواقف أو بطريقته العامة في وجوده في العالم ، مّما يمنعه من التصرف كما يشاء أو مثل الآخرين وهذا ما يزعزع سلوكه التكيفي أو فعاليته . أضف إلى ذلك ، على صعيد هذا المستوى الواعي وفي هذه الحالة الخاصة للكائن المعقَّد ، لا يشعر إلا بنتيجة واحدة لعقدته . هكذا فإن الفتى غير قادر على تحمل نظر الآخرين إليه وجهاً لوجه أو بكل بساطة مقابلة نظر الآخرين في الشارع . بينما فتى آخر لا يمكنه خلاص وعيه من رؤ ية الفشل منذ أن يتناول شيئاً جديداً يستطيع من خلاله تأكيد شخصيته ووجوده .

يجد الأنا ردة فعله الخاصة الغاشمة ؛ ويحاول إصلاح ذاته بانتزاعه من الآخرين ولكن باطلاً . فردة الفعل أقوى من الأنا .

لنرى هنا ظاهرة التصرف الذاتي الذي يمر دون تدقيق الأنا وإرادته ولا نرى نتجة « النبوغ الذكي » الذي أعتقد به يونغ .

هنا ينبغي تمييز العقدة عن العادة بالضبط بعض العادات التي اتخذت استقلالية أو التي تفلت من الأنا الارادي . كقضم الأظافر أو انتزاع الشعر أو التدخين أو السكر أو تعاطي العادة السرية . . . ليست كلها بحد ذاتها عقد نفسية رغم أنها يمكن أن تكون في بعض الحالات على صلة وثيقة بالعقد أو بشكل أعمق مع تصورات قسرية عصابية .

لا تظهر العقدة إلا استجابة لموقف حقيقي ؛ ليست عادة متأصلة « تتفاعل » ، وحدها ، لكنها ردة فعل عاطفية وسلوكية حسب نوع الموقف . « لا يستطيع أن يتحمل أقل لوم أو أقل مزاح » يكون ذلك إشارة إلى التعقيد ، في حين أن « دوران النظر » أو « النفور » لا تعتبر عقداً .

يجب أن نضيف إلى تعريف هيسنارد الذي شدد على الاستقلالية الذاتية والعزم الشبه الواعي والانطلاق الذاتي للعقدة بنمط معين من المواقف ، يجب أن نضيف أثر العوامل العاطفية ـ الانفعالية للموقف الذي تمَّ الانطلاق منه . فالعقدة هي بالتأكيد نوع من التصرف الآلي للاستجابة لكنها تحمل شحنة عاطفية انفعالية قوية .

فردة الفعل ليست حركية صرف إنها « حالة انفعال » . فحمل الوعي العقلاني الجلي الاداتي بسبب المعطيات الموضوعية الخارجية كما نراها ، وكما يمكن حلها. يحلُّ فجأة وعيٌ منفعل ذات صفة ذاتية في هذا المجال ، وهنا تنطلق ردة الفعل الآلية المجزأة وغير المتكاملة .

لقد ذكرت سابقاً أن الفرد « المعقَّد » يعي عقدته في حالة وحالة واحدة فقط ، عندما يكون منزعجاً (وواعياً لمتاعبه) من انفعاله ومن كبته (في عدم القدرة على التحرر) .

نقول حالاً بأن هذه الحالة هي حالة المعقد غير المتوازن ، أي بالشكل البسيط والواضح ، حيث تتميَّز « الاستقلالية الذاتية » للجهاز العاطفي ـ السلوكي استجابة لبعض المواقف . يتلقى « الأنا » عقدته ودفاعاته تبقى بلا جدوى .

نصل ، بعد وصف الميكانيزمات الدفاعية الفعالة مثل الابدال والتعويض والتعديل ، إلى الكلام عن أشكالٍ أخرى من العقد وعن علاقة أخرى مع الأنا . في هذه الحالة يصبح الأنا نتيجة دفاعه لا يعي سبب ضيقه . فهو لا يُدرك نتائج العقدة كشذوذ مزعج . ويعيد الفرد في هذه الحالة سبب سلوكه إلى « أطباعه » أو إلى « شخصيته » أو إلى « مبادىء خاصة به » .

إن دفاع الأنا الذاتي الناجح بالنسبة لعقدته الأصلية له نتيجة بأن يدمج التكوين الجديد للعقدة في الشخصية ، تكوين جديد يعتبره الأنا وكأنه هو بالذات . وتقول هنا أنه حدث تطورُ العقدة وتبقى

مدركة من قبل كل المراقبين ، لكنها تبقى غير مدركة من قبل الأنا وحده . فهذه الحالة هي التي نستطيع أن نقولها بالمقارنة مع ما قاله جانك في مجال آخر وهو التالي :

« تتمثل العقدة بالأنا ذاتها مما يخلق تحويلاً لا واعياً للشخصية » .

لنأخذ مثلاً على ذلك قد يتضح تباعاً . لنفترض أن هناك عند شخص معين عقدة النقص حيث أثرها الأصلي يظهر بالشعور بالنقص بالنسبة للآخرين «ليس على المستوى» اللازم لمهماته أو لمشاريعه ، يصبح خجولاً بسرعة ، فيحاول أن يظهر « صغيراً جداً » ويستقر في إحدى الزوايا ، متأكداً من أنه سيصبح مجال سخرية أو عدم اعتبار . هنا يتألم الأنا . بإمكانه أن يقول بكل وعي أن الآخرين ليسوا أعلى منه وانه متساوٍ معهم في نقاط عديدة . . . لكن ذلك يبقى « وعياً غير قادر » . تغمر زيادة خجل النقص الوعي في المواقف وتسيطر على السلوك العاطفي .

لكن لنفترض أنه يعد دفاعٍ عن الأنا (الذي يعتبر آلياً وذاتياً ونجاحه لا يتوقف على الارادة) استطاع الفرد أن يقوم بعملية التعويض . في هذه الحالة تنمو عقدة التكبُّر أو الاستعلاء : يستغل الفرد كل المناسبات ليعلن عن نمطه الاستعلائي ، وبذلك يحاول أن يلفت الانتباه إليه بشتى الأساليب ، يريد أن يُظهر للآخرين بأنه الأذكى ، والأجمل والأكثر لباقة وأفضل من الآخرين . فهو ينظر إلى كل الناس على أنهم أقل شأناً منه ، فيسخر منهم ويقلل من اعتبارهم .

نحصل إذاً على عقدة عكسية تخلّص الأنا من عذابها تجاه عقدة النقص الذاتية . المهم أن نعرف هنا أن الأنا لا يعي عقدته مطلقاً . وهو يقوم بعملية تحويلها بدفاعه الناجح وبذلك يكون قد دمجها . وهكذا يكون قد وقع في عقدة أخرى يمكن رؤ يتها من قبل الآخرين إذا كانوا مطلعين على سيكلوجيا العقد بشكل عبثي كالشكل الأصلي الذي لم يتم التعويض عنه (يقال بشكل أفضل غير معوَّض) لكنه لا يرى شيئاً من ذلك ، إذا حدثناه عن ذلك نتلقى منه تفريغات عدوانية دفاعية والكثير من التحقيقات الحماسية .

يمكننا إذن تعريف العقدة « كجهاز انفعالي ـ سلوكي ذاتي استجابة للمواقف النموذجية » غير المندمجة مع الأنا في العقد غير المعوَّضة ومندمجة مرضياً مع الأنا في الأشكال الناتجة عن الدفاعات الذاتية الناجحة . يبقى أن نصف نسق العقدة الاجرائي .

II ـ نسق العقدة الاجرائي

تتفاعل العقدة « كجهاز » حاضر دائمًا للانطلاق في الحياة الاجتماعية عند الفرد (طفل ، مراهق وراشد) فتؤثر على المستوى الادراكي والمستوى المعرفي والمستوى السلوكي .

نعلم أن هناك عوامل معرفية وشخصية تتداخل في الادراك العامي . يستخدم إدراكنا أشكالاً معرفية مجردة أو مفاهيم ليحقق أهداف العالم الخارجي ، وروابطه لوضع رموز « المعلومات » بغية

التعرف إلى مصدر وجودها (كما دلَّل على ذلك العديد من التجارب وبصورة خاصة تجارب برونر وبوستمان) . ثمَّ استيعاب هذه الاطارات المعرفية (التي تشكل جزءاً من إطار مرجعنا) في الجهد المبذول للمعرفة العقلية وتميزت بالحقيقة الثقافية ـ الاجتماعية من خلال الحديث والانتماء الاجتماعي .

لكن إلى جانب هذه المفاهيم التي تسعى ألى ترميز وحل رموز المعلومات (أي كل ما يُدرك بالحواس) ، يوجد ما يمكن أن نسميه « المفاهيم المستعارة » التي تُعتبر خلاصات التجارب الشخصية المشحونة انفعالياً . إنها أصناف من مستوى لا عقلي ولا اجتماعي ـ ثقافي ، وبواسطتها نعتقد أيضاً بالوصول إلى فهم المواقف أو المعلومات في حين لا نقوم إلا بإنزال معاني شخصية حية عليها ، دون علاقة مهمة مع الحقيقة الموضوعية ، مما يؤدي إلى إعوجاج المعنى « العام » للموقف أو للاعلام .

تتيح هذه المعطيات فهم التطور الاجرائي الرئيسي للعقدة . قال يونغ : « للعقدة أثر جذاب ومتمثل » ، جذاب « لأنها كنوع من المغناطيس المشحون بطاقة جذابة يلتقط كل ما هو ميَّال ، وحتى الأشياء غير المهمة أو الغريبة بحد ذاتها على معنى العقدة » . . . متمثل ، لأن كل من يكون تحت نفوذ العقدة المسيطرة يعي ويفهم ويُدرك المعطيات الجديدة التي تتفاعل في حياته ، في اتجاه هذه العقدة ، وكأنه يعيش نوعاً من الانحياز الأصلي الثابت (الانسان في اكتشاف نفسه ص . ١٧٦) .

بما أن العقدة تتفاعل على مستوى الادراك بالاختيار وتفسير المعطيات وعلى مستوى المعرفة بطريقة لفهم ذاتها مشوهة بالأنواع العاطفية النموذجية للعقدة ، يحق لنا أن نقول بأنها تعمل كمتمثل ثابت يعطي دائماً التفسيرات نفسها للمعطيات الخارجية ، وهي تفرض شكلها تقريباً على المجال الادراكي الذي يُعتبر عاملاً من عوامل تشويه الحقيقة المزمن .

إن عملية « التكيف » (كما عرَّفها بياجه بالنسبة لعملية التمثيل) التي تكمن في استخراج المفهوم أو الفكرة من الخبرة وذلك بالتطابق مع الواقع ، هي تقريباً مقفلة تماماً بالمتمثل الثابت ، التي تبني بمعنى عكسي معنى المعطى انطلاقاً من فئاته الادراكية والمعرفية .

إن التطور السوي المتوازن الذي يتأرجح بين التكيف والاستيعاب يلتوي لمصلحة الاستيعاب . ولهذا السبب تميل العقدة دائماً إلى تعزيز نفسها بنفسها . بالفعل ، لا يرى الفرد المعقّد ، في الحقيقة ، ولا يفهم في المواقف ما اسقطت عليه عقدته . فالفرد المصاب بعقدة الفشل لا يعرف إلا أنواع الفشل ؛ فهو لا يرى نجاحاته ، لا بل يتناساها ويكرهها ويقلّل من قيمتها ويربطها بالصدفة ، ويستخرج من مجالات فشله الحقيقية البراهين الموضوعية على أنه مكرَّس للفشل . على هذا الأساس ، مهما كانت العقدة ، تصبح في مجال تغذية ذاتية ومستمرة لنفسها ؛ ولا بد من أن تتعزَّز بما تقدمه لها الحقيقة الواقعية ، لأن هذه الحقيقة قد تشوهت بالعقدة وشُحنت بمعانٍ خاصة بها . فالسلوك الذي يُعتبر محتوى في هذا الجهاز المعزّز ذاتياً هو

« منطقي » بالنسبة لهذا الجهاز . فالطريقة التي يتصرف بها الفرد تصنع النتيجة التي يخشاها .

إنما هناك ظاهرتان تتداخلان على طرفي الظاهرة المركزية الموصوفة سابقاً : تكمن الظاهرة الأولى في امتداد العقدة وتأثيرها على مواقف أخرى غير المواقف المثارة مباشرة ، والظاهرة الثانية هي في إطلاق ردة الفعل على إشارة بسيطة توجز موقفاً نموذجياً .

لقد رأينا سابقاً أن العقدة هي جذابة بحد ذاتها . يجب أن نعطي لهذه الميزة كل معناها . فهي تعني أنه بالاضافة إلى أصناف المواقف الدقيقة التي تطلق العقدة ، كما تميل إلى إعطاء معنى معقد لمواقف أكثر فأكثر بعداً عن المركز الحساس . ينتج ذلك من التفسير نفسه . بالفعل ، إذا تمَّ تفسير عنصر من موقف كلي جديد غريب بالنسبة للعقدة ، بتعابير معقدة ، يعود الموقف وينظم معناه في هذا الاتجاه الجديد .

تميل العقدة بذلك ، خيالياً ، إلى إفساد الوجود بكلِّيته ، ونحصل هنا على تقييم ممكن لدرجة مركزيته لأنه في النهاية ، عندما يصبح الوجود الموضوع الرئيسي تقول أن ذلك ليس سوى مجرَّد عقدة أو نوعاً من العُصاب .

وفي الطرف الآخر نرى ان العقدة قد انطلقت على عنصر واحد من الموفف الأساسي المعقد . وبهذا تتحالف العقدة مع التكييف . فقد تكفي كلمة أو إشارة أو رمز لاطلاق ردة الفعل الانفعالية والسلوك

الذاتي المعقَّد . إن صمت الشريك مثلاً (أو مجرَّد إنشارحه) يصبح إشارة لعقدة النفي ؛ فنظرة مجهول تطلق عقدة الذنب .

III ـ علم دلالات العقدة

لا يمكن أن يمر مثل هذا التشويه للحقيقة دون أن يُرى من قبل مراقب متيقظ ، وبشكل خاص إذا كان على علم بذلك .

من الأفضل أن يجد القارىء هنا المميزات الظاهرة التي تتيح معرفة العقدة عند الغير (وعند الذات) .

للسلوك المعقد (على مستوى السلوك الذي تحدده الملاحظة) ميزتان أساسيتان :

١ ـ إنه سلوك مفرط، مُغالٍ، ومتجاوز الحد . ـ ينطلق أولاً من العدم ، ومن شيء قليل أو من تفصيل بسيط . مِـمَّن هو مصاب بعقدة النفي (ويعود إلى محطة الكلام : أنا مُبعد ولا أحد يحبني) تكون ردات فعله حادة (مع ردة فعل انفعالية قوية والوقوف على مسافة عنيفة من الغير) . إذا كانت طريقة الاستقبال التي واجهته بها لم تكن بحرارة (ولأي سبب آخر) أو بفرح أو إيجابية ظاهرياً كما يتوقعها .

من ناحية أخرى هناك تهويل للموقف : لذلك الذي عنده عقدة الفشل لا يوجد أنواع فشل صغيرة ، بالنسبة له كل أنواع الفشل

بذات المستوى وهي مذهلة . وأخيراً يأتي الفائض من أن الفرد لم ينتهِ بعد من سلوكه المعقّد : فالمعقد بعقد الاستعلاء لا ينتهي مطلقاً من إظهار قيمة نفسه ، وإظهار ذكائه وانتصاراته ، ومن جذب الانتباه حوله ، ومن التنافس مع أي فردٍ آخر وبأن عنده دائمًا شيء مهم ليقوله ، إلى أن يترك الآخر المبارزة (على افتراض انه هو الذي بحث عنها) .

٢ ـ **إنه سلوك تافه ، مملّ وتكراري** ،حتى إذا كان محتوى ردات الفعل يتغيرُ حسب المناسبات ، وإذا تكلم الفرد بكثرة . هنا تظهر الذاتية بكل حدودها . ويبقى الفيض من الخجل بالجانبية النفسية ذاتها ؛ فالهم الأساسي للفرد المعقد بعقدة الاستعلاء ، هو بأن يبقى فوق . ففي الواقع اليومي ، تبقى الترنيمة السلوكية لردة الفعل تلعب الدور نفسه ، هذا في حال اعتنينا بالتقاط المحتوى الحسي المتغير منها كما التقطنا الشكل والغاية . وها نحن دائمًا أمام السيناريو نفسه .

وهكذا تحصل على ميزات العقدة بشكل دقيق ، والطريقة التي تنفذها في التشويه المزمن للواقع وللعلاقة بين الناس . بكونها مستوعب ثابت ، تضع محل إدراك الموقف الحسي بكل عناصره الأصلية بنية من التفسيرات المشحونة بشكل عاطفي تافه . فهي لا ترى في كيانها الوجودي الواقع ولا ترى الغير ؛ وحتى في حوادث المواقف الحاضرة . فحقل الادراك أصبح فقيراً وخفيفاً ومشتتاً . والسلوك ، من جهته وهو التعبير عن ردة الفعل الانفعالية المنطلقة آلياً ، أصبح مقولباً وذاتياً .

قبل أن نصف العقد الكبرى ، علينا أن نختار الفروقات الأساسية بين العقد المتوازنة والعقد غير المتوازنة ، وبذلك نفصِّل ميكانيزماته دفاع الأنا ورؤ ية كيفية تحولها والتي تعتبر أصلاً جهازاً ذاتياً للسلوك .

الفصل الثالث

أصل العقد وتحولها

توصل التحليل النفسي بتجميعه للأبحاث العيادية والمرضية إلى التأكيد بأن أصل كل العقد هو في التاريخ الفردي . إلا أنه يجب أن يُفهم أن المقصود هو تاريخ الفرد كما يسرده الأقارب مثلاً ، إنما المقصود احداث الماضي كما عاشها الأنا بوسائله الخاصة وضمن الحالة العامة حيث تواجد في الفترات المأخوذة بعين الاعتبار . المقصود هنا « حقيقة نفسية » وليس المقصود « حقيقة تاريخية مادية » بالمعنى الصحيح (فرويد) .

I ـ التجارب البارزة

إن تحسس الفرد البشري لهذا الموقف أو لهذا النوع من الأحداث أو لذلك النمط من العلاقات بين الناس ، هو نتيجة التقاء هذه المعطيات في الماضي مع المعنى الذي اتخذته بالنسبة للفرد في الوقت الآني (والأهمية التي اتخذتها) وفي وجوده بالذات .

تتجمع الانفعالات الشعورية في هذا الظرف ، والتصرفات الفعلية وردودها وإدراكات الموقف الراهن وما معها من تفسيرات وصور ، وكل عناصر الوضعية ومضمونها الآني ، وتترسخ حول موضع المشكلة وعناصرها وعلاماتها وحول تصورها العام .

زيادة في التوضيح ، ينبغي وضع العقد بالمعنى الصحيح في مجموعة اتصالية تتنقل بين التكييف والهذيان ، مجموعة إتصالية سيكلوجية بالمعنى الصحيح ، بإمكانها أن تمثل درجات تمركز العقدة الحاصلة .

١ ـ **التكيفات الصادقة والبسيطة** (مثلاً ، حسب تقنية حديثة للتربية الرياضية رُميَ ولد في الماء بشكل غبي بغية تعليمه السباحة » وقد حصل له خوف مهيب مع نوع من الاختناق ، هذا الولد سيرفض في المستقبل وخلال كل حياته الدخول إلى الحمام للاستحمام . . . أو مثل هذا الفرد أصبح مريضاً حتى الموت بالتسمم بعد أكله محار ملوَّث سوف لن يأكل أبداً أي نوع من الصدف الخ . . .) .

٢ ـ **الاضطرابات السيكوحركية المزمنة** (تلقى ولد مثلاً كبتاً مخيفاً في علاقاته مع أبيه أو أنه سُخر منه بدون شفقة لصعوبات عادية في اللفظ يُصبح عنده تأتأة مدى حياته . . .) .

٣ ـ **الاضطرابات في تكوين الخُلق** (مثل عملية تلقي أوامر متناقضة في مراحل الطفولة الأولى من قبل الأشخاص المحيطين به ـ فالواحد يأمر بما ينهيه الآخر ، أو الأول بفرض القصاص في حين أن الآخر يتقبل التصرف بسرور ، كل ذلك يؤدي إلى خطأ مزمن في

التوجيه في مجال العلامات الضرورية لتنظيم الأنا ، أما أن يحصل تخريب نهائي للقيم ونمو الأنا بدون أبعاد اجتماعية أخلاقية . . . فالطفل الذي يعيش باتحاد وثيق مع أهل قلقين ينتابه باكراً فرط في الانفعال القلق . . .) .

٤ ـ أمراض الأنا ، العصاب النفسي والهذيان

في حال كنا نعتقد أن أسباب الأمراض العقلية يعود للأشياء النفسية ، علينا أن نتقبل بأن تجارب غير متوازنة يمكن أن تدخل في مراحل الطفولة على مسافات متغيرة زمن النمو النفسي ، اضطرابات خطيرة . مع العلم أننا نأخذ بعين الاعتبار الأوضاع السابقة أو ضعف عصبي ـ فيزيولوجي تكويني ، فالأسباب القريبة هي نفسية (مثلاً . إذا رُميَ ولد منذ ولادته وعُذِّب من قبل أم ترفض الأمومة أو أنه كان هو نفسه مريضاً عقلياً ، ينمو عنده هذيان في مجرى حياته اللاحق . . .) .

تقع العقد ، التي نصفها بالمعنى الصحيح ، بين هذه المجموعة الممتدة من السِّمة الأولى حتى الرابعة ، وقد تنتج هذه العقد أيضاً من تجارب بارزة في الطفولة أو المراهقة . عند الاقتضاء يمكننا أن نطلق على العقد كل الاضطرابات الحاصلة من الفئات الأربع ذات التجاذب المتشابك ، وقد تتطور العقدة في بعض المجالات نحو العُصاب وحتى نحو الهذيان .

بين التجارب البارزة المولدة للعقد هناك فئتان كبيرتان :

أ) الصدمات النفسية ، أي الصدمات العاطفية ، مثلاً الابتعاد عن الجو العائلي في عمر مبكر حيث أن الولد لا يعي الأسباب الموضوعية « لابتعاده » أو عند المراهق صدمة الاغتصاب .

ب) الأجواء النفسية المضطربة أي الأثر الحاسم لشروط الوجود الممتدة في الزمن كالاصابة بالحسد السرِّي لسنوات طويلة نحو أخ أو أخت يُنظر إليه أو إليها بنظرة اعتبار ، أو عدم التمكن من التعبير الفوري ، أو انقضاء كل فترة الطفولة بانهماكات قاسية بمشاكل الدراهم ، أو تصوُّر قسري للدراهم عند الأهل أو القيام باصطدامات بين أعضاء العائلة بسبب الدراهم ؛ وفي حال اعتباره طفلاً مدللاً معبوداً ، أو اعتباره متفوقاً . الخ . . .

مثل هذه التجارب أصبحت كقواعد عامة ، أي أنها لم تثبت فقط كقاعدة عامة ، كنموذج ، كفعل تقريري ، لكنها أصبحت كمركز لفئة وانتجت مفهوماً مستعاراً كما تكلمنا عنه سابقاً ، مفهوم له دور في تأسيس مجموعة علامات وتصرفات تجاه الاستجابات ثمَّ بناء الجهاز العاطفي الذاتي المكبَّل والمشحون الذي يسعى ، منذ اللحظة الأولى إلى تنظيم المواقف (بتغيير اتجاهها) التي تجابه الأنا .

II ـ الحقبات الحساسة

نضيف إلى كل ما ورد ، أن نمو الولد يتبع مراحل محددة تتميز « بحقبات حساسة » . مثلاً أن الحقبة الحساسة لاكتساب النظافة تقع

بين ١٨ و ٣٦ شهراً لأن نضج الجهاز العصبي يجعلها ممكنة في هذا الوقت . لا يتم اكتسابها قبل ذلك ويصعب بعد هذه الفترة .

إن الحقبة الحساسة لقيام العلاقة مع الأم ، تعتبر النموذج الأصلي المحتذى للعلاقة اللاصقة مع واقع الكون ، تتمركز بين الولادة وعمر السنتين . أما الحقبة الحساسة للفروق التشريحية بين الجنسين فتتمركز نحو السنة الرابعة حيث أن عقدة الذنب مجتمعة مع هذا الشكل من الفضولية لها أثر فعّال خلال هذه الحقبة . وتقع حقبة الشعور بالنقص حوالي ٦ سنوات في العمر الذي يدرك الطفل فيه أنه صغير ويتأكد من ضعفه أو عدم قدرته . إن وعي الشذوذ الشخصي (إذ أنه غير الآخرين) إذا كان طبيعياً (تورم ، حدب ، نظارات ، قدم مشوهة) أو ثقافياً (فروقات في طريقة العيش أو اللبس) أو عرفياً (الصغير الغريب بين رفاقه) يبلغ أوجه بين ٧ و ٨ سنوات ، وهي حقبة حساسة لأول مرحلة اجتماعية .

هنا قد يتلقى الأنا صدمات حسب حقبة نموه وتكون ردود فعله متغيرة .

يُضاف إلى ذلك ميكانيزمات دفاع الأنا التي لا توضَع في مكانها ومع بعضها البعض لكنها تتبع ترتيباً زمنياً حسب النضج وإمكانية الاجراء (ظاهرة مسجلة من قبل أنّا فرويد في كتابه . الأنا وميكانيزمات دفاعه . . . وتمَّ تدقيقها من قبل جولدشتاين سنة ١٩٥٢) . سوف نعيد هذه الميكانيزمات إنما علينا أن نعلم منذ الآن أن الكبت لا يظهر

(حسب رأي جولدشتاين) إلا نحو ٦ سنوات في حين أن النكوص (ضياع المكتسب ، عودة دفاعية ذاتية إلى مستوى كلي سابق ، العودة إلى الطفولة مثلاً) هو في حالة توظيف منذ عمر السنتين .

سوف تتيح هذه المعطيات الجديدة كيفية تكوين وفهم العقد ومن ناحية أخرى كيف ولماذا استطاع الأنا الدفاع ضد المتاعب والاضطرابات التي أحدثتها هذه العقد .

III - العقد المتوازنة ، التعويضية ، المتصعّدة والعقلانية

لحصر ما هو أساسي ، تكفي معرفة الميكانيزمات الأربعة التي تلعب دوراً مباشراً بين ١٥ أو ١٦ ميكانيزم دفاع للأنا في تحويلات العقد . وهي :

١ ـ التوازن .
٢ ـ التعويض .
٣ ـ التصعيد .
٤ ـ العقلنة الدفاعية .

يُقصد ، بالفعل ، الدفاعات الذاتية غير الواعية للأنا ضد صعوباته الداخلية ، الخاصة (الألم والجزع والحرمان) ولا يقصد بميكانيزمات الدفاع الاجتماعي للأنا التي تشكل شيئاً آخر ؛ تتداخل هذه الأخيرة في العلاقة بين الناس (مثلاً في موضع استجابة لبعض المشاكل) بغية إعطاء الأنا صورة مقبولة اجتماعياً عند الغير أو في كل

الأحوال مطابقة لقيم الجماعة . هذه الميكانيزمات الأخيرة (التي بفضلها نظهر عادلين وأسوياء مفكرين وبريئين وأذكياء وشجعاناً . .) لا تهمنا هنا إلا بقدر ما تستطيع أن تشكل وسائل دفاع عند مُحاورك (وتضاف إلى وسائل أخرى مثل محاشاة الشخص المخاطب ، والانكار ، والعدوانية الدفاعية وردة الفعل والهيبة والتقدير الخ .) ، إذا تكلمت معه صدفة عن عقده عندما يكون قد نجح في دفاعه المتكامل البدائي .

نعود إلى ميكانيزمات الدفاع الداخلية للأنا ضد كل ما يقلقه أو يخنقه . فيما يتعلق بكل من الميكانيزمات الأربع سأُظهر ماذا تصبح كل عقدة في هذا الشكل الجديد الذي نعرف عنه أنه يكمل العقدة (في حين أن العقدة ، في الحالة البسيطة المتفسخة ، تكون ذاتية وينطلق السلوك المعقد رغماً عن الأنا نحو عدم قدرة الأنا) .

١ ـ **التوازن** . ـ يكمن هذا الميكانيزم في إلغاء نتائج الاضطرابات الناتجة عن عقدة معينة وذلك بتنمية سلوك معاكس ناجح في مكان آخر ومرضي للأنا . يفترض هذا النوع من الدفاع (الذي يكون غالباً صحيحاً) أن تكون العقدة قد ثبتت في مواقف دقيقة أصيلة (هذا يعني أن الاضطراب لا يميل إلى الامتداد على مجموعة المواقف الحية) وقد استخدم الأنا استعدادات فعلية ومناسبات طارئة لتأكيد ذاته بالتوازن (بغية إعادة توازنه وإعادة قيمته) في كل مجال آخر . مثلاً إذا كان ولد في عمر العشر سنوات يشكي من عقدة النقص لأنه هزيل

ونحيل أو لأنه غير موهوب بدنياً بين مجموعة رفاقه يستبسل في الحصول بعملية التعويض تفوقاً في المجال العلمي أو الفني ، ويصبح في هذا المجال أو ذاك لامعاً ومحسوداً .

٢ ـ **التعويض** .ـ(غير معطاة من قبل أدلر لما أطلق فرويد عليه « تكوين ردود الفعل ») التعويض هو جهد لنفي العقدة بانماء جهاز سلوك على المواقف نفسها وهذا الجهاز هو عكس الجهاز المعقد . تقدم التجربة الحية أمثلة عن التصرفات من هذا النوع : فالسير بخطى واسعة ومسبباً ضجيجاً والصفير يفرح في الليل في حين يكون الفرد خائفاً هي إحدى أنواعْ السلوك التعويضي . فعملية التكبُّر وإعطاء قيمة لنفسه والظهور بالتعجرف لإخجال الآخرين ، كل ذلك ليس سوى عملية تخلُّص من شعور خاص أو سلوك آني يختبىء وراءه ، عكساً ، أحاسيس النقص والذنب .

وفي حال قمنا بتطبيق ميكانيزم التعويض على عقدة معينة فإنها تحولها إلى عقدة مشبوهة ، إنما معاكسة للأولى : فالمذنب المزمن يصبح ناقداً بدون شفقة لكل الأخطاء ومدعٍ عام ، يختال في مثال أعلى ذات قيمة أخلاقية لا تضاهى ؛ الخجول يُصبح سفيهاً ؛ والذي يشعر أنه ناقص عقلياً تنمو عنده عقدة « الاستعلاء العقلي » (يقال عنها « عقدة الذكاء ») ؛ والذي يشعر أنه ناقص جسدياً بسبب عاهة تمنعه من القيام بأحد أنواع الرياضة يصبح بطلاً حقاً في هذا النوع من الرياضة البدنية .

٣ ـ **التصعيد**ـ بتأثير هذا الميكانيزم ، تنتقل العقدة إلى مجال مقبول اجتماعياً وعقلياً . فهو يتكامل تحت هذا الشكل مع الأنا حيث يصبح بالنسبة إليه نشاطاً اجتماعياً أو عقلياً مشحوناً بالاهتمام أو بالشوق وحتى بالقيمة (الاجتماعية الأخلاقية ، العقلية ، الفنية) .

وهكذا ، فعقدة الهدم ، التي تدعو إلى التخريب والكسر وتحطيم الأشياء تتصعَّد اجتماعياً وبشكل خاص في المتفجرات والمناجم أو في صناعة أدوات التخريب والتداول في أدوات الاقتتال والسحق . وفي حال سيطرت في العقدة نفسها الحاجة السادية إلى القتل أو شق البطن والنخر وسيلان الدم الخ . . هناك تصعيدات عديدة اجتماعية ممكنة من القاتل إلى الجزَّار إلى الجرَّاح إلى الطبيب الشرعي ، إذا كان التصعيد عقلياً في الوقت نفسه .

تتصاعد عقدة حب الظهور (الظهور أمام الآخرين ، جذب الأنظار حوله ، لعب دور معين أمام الآخرين ، الظهور بالاعجاب . . .) اجتماعياً في كل نشاطات المشهد والشاشة ومنصَّة الفائزين ، والمنبر من بائع الصحف إلى الأستاذ مروراً بالممثل الهزلي المحترف إلى نجمة المرأة العارية على المسرح . تتصاعد عقدة النقص بمقتضى التواضع والمحو الارادي .

قد نصل أيضاً إلى أنواعٍ من التصعيد عن التوازن والتعويض . فالحصر الجنسي القسري هو نوع من التعويض عن عقدة الخصي أو عن نقص في المجال الجنسي تتصاعد بدورها عقلياً واجتماعياً في

أبحاث في مجال العلم الجنسي وفي مهن التربية الجنسية أو الباحث الموضوعي حول التصرفات الجنسية عند الرجل وعند المرأة .

٤ ـ العقلنة الدفاعية

يُفهم هذا الميكانيزم في المعنى المحدد من قبل ويلهلم ريخ (في التحليل الطبائعي ١٩٣٣ بايو . ١٩٧١) ولا يفهم في المعنى البسيط للتحقيق العقلي لفعلٍ معينٍ بمحرِّكٍ لا عقلاني أو محرِّك مخجل .

حسب تفسير و . ريخ تعتبر عقلنة العقدة تعديل كامل لها أو بالأحرى نفيها الحاد ، بجهاز من الدفاع أصبح الأنا ذاته . من ناحية أخرى أن ميزات الـخُلق في مجملها أصبحت دفاعات مزمنة ونهائية . أطلق عليها ريخ « ميزات الخلق المدرَّعة » .

إحدى الأمثلة الحسنة ، العقلنة الدفاعية لعقدة الذنب في « الخلق المتكامل » فالمتكامل ، بعكس أكثرية الناس الذين يكونون مسرورين من نفسهم بسهولة وراضين على عملهم ، حتى لو استرخى لرغباته أحياناً ، هو فرد دقيق ومتشدِّد يبحث دائمًا عن الكمال في كل عمل يقدَّم إليه أو يُوهب له . فهو يعي التفاصيل المعرضة للنقد ويصححها مسبقاً . يبغي دائمًا الكمال الذي ينفي كل هجوم أو ملاحظة . إنه متهيء دائمًا لتأكيد ما يفعله باعتبارات موضوعية « على ما يجب فعله » أو « ما يبتغي فعله » . إنه مدقق تجاه نفسه . ومن الطبيعي أن كل

عمل ، ضمن هذه الشروط يتطلب منه وقتاً أطول وبالتأكيد أكثر اهتماماً مما يخصص له الآخرون . وهكذا يصبح مضطراً إلى بذل جهد أكثر والعمل لمدة أطول ومن ثمّ الغضب أكثر من غيره . « هذا صحيح ، يقول المتكامل ، لكنني هكذا كُوِّنت » .

في العقلنة (يُقال بشكل أفضل : النفي بالطبع ، أو التنظيم الدفاعي الشامل للأنا) لا يتألم الأنا من العقدة ؛ فقد نفاها وينفيها باستمرار محتمياً منها ، إنما كي يبلغ هذه النتيجة السيكلوجية حاول تكوين نسق تصرف يمنع كل خطأ أو عيب . « فالـخُلق » المحدد هكذا لا يكون له علاقة مع « طبع » أو « تكوين » الفرد . إنه تكوين دفاعي عام يحمل كل مظاهر الـخُلق الطبيعي لكنه بالواقع خذ مكان الخلق بالمعنى الصحيح . وحلت صلابة غريبة محل تلقائية الأنا وهذا ما يؤدي إلى تقييد الكائن . تحدَّث و . ريخ ، في هذه الحالة عن « عصاب الخلق » بدون مظاهر مرضية وبدون تأثير ذاتي من تعب أو كبت عند الشخص المعني .

هناك أناس يزعجهم الحب كتب فرغوت (في التحليل النفسي ، علم الانسان ، تأليف هوبر ، بيرون وفرغوت ، منشورات ديسار ١٩٦٤) . يشعرون شعوراً غامضاً وعابراً بأنهم إذا أعطوا أو انفتحوا على الآخرين يتعرضون لعدوانيتهم . وإذا دعا أحد الأفراد إلى الرفق بهم ، يتصلبون . وكل تقارب ودي يشعرهم بالتطفل والتهديد . وكل حركات الدفاع لها صدى في موقفهم الجسدي : نراهم دائماً

جادين في أعمالهم سريين ، متوازنين في سيرهم ، يرفعون أصواتهم بهدوء مترجرجين في حركاتهم . . . » .

وفي حال أصبح النفي خطاً من خطوط الـخُلق يستطيع ، في بعض الحالات الرؤوفة للعقد ، أن يكون محدوداً في منطقة حساسة بنوع خاص . وهكذا فالشخص المعقَّد بعقدة الرفض أو النفي (لكن النفي يتكامل أحياناً مع الأنا) يهزأ بحد ذاته حينما يشعر بشعور الصداقة أو الحب ويهزأ بدون شفقة من الآخرين عندما يعبرون عن مثل هذه الأحاسيس ، حتى لو لم تكن تعنيه ويقال عنه « صَلِف » Cynique .

وشخص آخر مصاب بعقدة النقص (حيث نفيها يتكامل مع الأنا) يتحدث إلى كل الناس بابتسامة تهكمية ، مستقلاً من محتوى ما يقوله . كل الذين يعرفونه لا يهتمون به أو يعتبرون ذلك « مثل تشنج » . لا أحد يشك أنه بفضل هذه العزيمة ، لا يعتري الفرد أي نوع من النقص الذي يزعجه . ففي الدفاع الكلي ضد العقدة الخطرة ، فإن الخُلق بكامله ينظم النسق الدفاعي . لا يكتفي الشخص المعني بالقول « أنا هكذا أتصرف » بل يقول « هذه مبادىء شخصية أتعلق بها كثيراً » . وهكذا يعيد توازن الأنا عنده ويقيِّم طريقة وجوده الحالية دون أن يرى تلقائياً إنه على علاقة بأية عقدة .

هذه التحولات للعقد النفسية هي إذاً نتيجة دفاعات نستطيع أن

نقول أنها تعني قوة أكبر للأنا . هناك فرق شاسع بين عدم قدرة الأنا والعقدة المتزنة (عدم قدرة يبحث عن نسيانها في مجالات هرب مختلفة مثل الكحول والمخدِّر أو الاعياء النفساني) ، وقدرة الأنا عندما تتصرف ، بفضل ميكانيزمات الدفاع بشكل أو بآخر كي نتجاوز متاعبها . مهما بقيت علامات وجود العقدة مخبأة ، لا يشعر الشخص بعقدته .

من المهم الاشارة هنا ، في ما يخص الدفاعات ، بأنها أتاحت إعادة التوازن عند الأنا ، وبالنتيجة نعرِّض الشخصية المنظمة إلى مغامرات خطرة إذا قطعنا كل الدفاعات بطريقة شرسة عمياء دون تأسيس وسائل سيكلوجية وعلاقية مسبقة لتعزيز الأنا بشكل صحيح بغية تصفية عقدة المتوقعة . يتخذ هذا الحذر كل معناه عندما ندقق بطرق شفاء العقد لأن البعض منها لا تأخذ هذه الاحتياطات الممارسة حالياً .

القسم الثاني

العقد الشخصية

اللائمة البيانية ـ والوصف

فقط بواسطة الاطلاع التاريخي والادراكي للفصول الثلاثة السابقة . نستطيع الآن وضع لائحة عملية للعقد الشخصية . من الواضح أن درجة تجاذب كل منها متغيرة (تتراوح بين التكيف العادي والعُصاب) وإننا لا نفضل ولا واحدة بينها لئلا نصل إلى عقدة العقد قالب لكل عقد الباقية . وسندخل « في الصف » عقدة أوديب وعقدة الخصي (بامتياز من فرويد) ، عقدة النقص (بامتياز من أدلر) ، عقدة اختلال الأمن (بامتياز من كارن هورني) . عقدة الذنب (بامتياز من هيسنارد) ، الخ . . .

توضع اللائحة البيانية ووصف أشكال العقد في فصلين : يشتمل الأول على « العقد الكبرى » حيث أن التكرار الاحصائي يحقق هذه الترقية ،ويشتمل الفصل الثاني على ما نسميه « العقد اللاسمية للحياة الشخصية » المتصلة بحساسيات فردية أو حاجات عقدية خاصة ، تتداخل في علاقاتنا اليومية والزوجية والاجتماعية .

الفصل الأول

العقد النفسية الكبيرة

تتقدَّم هذه العقد المنتشرة إحصائياً بدرجات متفاوتة ، حسب رتبها الزمنية ، بالعودة إلى « الحقبات الحساسة » حيث يكون عندها أكبر إمكانية للظهور ، رغم أن أي صدمة مفاجئة يمكن أن تعقِّد الأمور في أية برهة زمنية كانت من الوجود أو جعل أي ميل أكثر خطْراً مما كان عليه حتى الآن ، وخاصة إذا كانت مقاومة الأنا متدنية في هذه اللحظة لأسباب أخرى .

I ـ عقدة الاهمال Le Complexe d'abandon

وتدعى غالباً عقدة « الحرمان العاطفي » أو « عقدة المنع » أو « عقدة الرفض » ، تدل عقدة الاهمال هذه على حساسية متطرفة في القصور العاطفي وفقدان الحب ووسواس في الابتعاد العاطفي ، لا بل تصدعه .

فنغماته الدائمة « لا أحد يحبني » أو « هو لا يحبني » « لا تريدني أبداً » «إنه يهملني» « إنها تدفعني عنها » « إنهم يبعدونني » « يتروكوني على حدة أو على مسافة منهم » .

إن الشعور بأن الكائن متروك ، أو لا يهتم فيه أحد (أو إنه لا يهتم فيه هذا الرفيق الموهوب الذي توقع منه حباً أو تقديراً) ، ولا يحظى بأي حب أو تقدير (كاعتبار أو كتقدير) كل ذلك بجعل الفرد مصاباً بهذه العقدة ويتألم بسهولة من الأحاسيس التي تشعره بأن الآخرين يرونه . يغزي الشك ميلاً يراقب أقل الاشارات المتناقضة والمتوقعة في سلوك أو طبع الغير ، كإحدى مظاهر الانفعال العاطفي .

يُوهب الـمهـمَـل (أو المتروك حسب تعبير ش . أوديه) شراهة عاطفية من الصعب تعويضها ، تتطلب ضرورة قصوى ورغبة حقيقية ملحة . يبقى الخوف المسيطر هو عدم الاهتمام به (أو بها) ، وكل خيبة أمل عاطفية تلقى شعوراً حاداً . يؤدي هذا الخوف إلى البحث المستمر عن ضمانه غير ممكنة ، وإلى استجواب يُطرَح على الآخر ، لفظياً أو بالنظر للتعرُّف إلى مدى حبهم له .

فالخوف من إزعاج أو تكدير أو إغاظة الآخرين أو الشخص ذي القيمة العاطفية يضع الـمُهـمَـل في موقف صعب لأن قواه الدفاعية تكون قد تعبت وأحدثت بذلك الابتعاد المشكوك فيه .

وتتابع المراحل ، فتارة اكتئاب وحَرَدْ عند أقل خيبة أمل متوقعة وطوراً إدعاء عدواني وكفاح حسود .

يرتبط الشره العاطفي الجشع بالحاجة إلى الاطمئنان والحماية . لكن هذه الضمانة للحماية يُبحَث عنها في خضوع شبه مطلق ، مثلما يبحث الرضيع عن الأم المرضعة . فالحب له قيمة الاطمئنان .

إن أقل الاشارات أو الأحداث تَعرِّض صاحبها لإيقاظ شعور الألم والأهمال : كبهجة الرفيق ، أو عدم انتباهه ، نقده أو لومه ، نظرته المتباعدة ، حركة غير اعتيادية ، لهجة قاسية نوعاً ما ، هزء أو صمت . بالأحرى إذا لم يكن الشخص المحبوب حاضراً في الوقت المناسب (بغية استقبال المهمَل) فإنه سيذهب بعيداً وقتياً ويهتم بغيره . يختلط كل عدم الاتفاق مع عدم الاتحاد ومع التباعد العاطفي . فكل « ضباب » في الحب النقي يوقع حجاباً ثقيلاً من الحزن السريع مع انهيار وتسرُّب أفكار الموت .

عاد م . أ . من عمله متعباً من المدينة . اعتقد أن مديره لا يقدره وقصد بأنه سيقدم استقالته في نهاية الأسبوع . وعندما عاد إلى البيت لم يهتم إلا بشيء واحد : أن يُستقبل إستقبالاً حسناً من زوجته . . . وعندما فتح الباب توقع من زوجته أن تترك كل شيء وتسرع لاستقباله ومنحه ضمانة شديدة من حبها له ، وقد نفذت فعلاً ما توقعه ، وبذلك أدى استقبالها إلى فعل سحري : فقد بدَّد الهموم وطرد التعب وأرخى أطرافه المتقلصة . . . واتخذت حياته معنى » ، (ش أوديه ، الألم والفكرة السحرية ص . ١٩٦ ـ ١٩٧) .

١ ـ **في شكلها الخطر** ، تُقارب عُصاب الاهمال الذي وصفته حرمانه جوكس (عصاب الاهمال ، المنشورات الجامعية الفرنسية ١٩٥٠) .

فالشخص المصاب بهذا المرض ، خوفاً من إهماله وإبعاده ، يرفض

كل صلة وكل ارتباط عاطفي كي يتخلّص من العذاب . فهو يتهكّم من كل شعور ويحبط كل وسيلة حتى بطريقة عدوانية إذا اقتضى الأمر ، فهو يقطع بفرح سادي كل صلة تبدأ ويرغب في اجترار عزلته بشكل يائس . فكل صداقة أو امتحان صداقة أو تقدير يُعَرض عليه ، وذلك للتأكد من عدم صحتها ، يثير متطلبات أكثر فأكثر اتساعاً إلى إحداث الانقطاع . فالمهـمَل يتسلح بأنه لا يريد أن يكون عاطفياً كي لا يتعلق وكي لا يُصاب بألم الاهمال الذي يشك فيه دائمًا . في حين أن عاطفته تثبت على الأشياء الرمزية مع الشعور بخلودها وأمانتها غير المشبوهة .

٢ - **في شكلها المتوازن** ، تساعد عقدة الاهمال في تأسيس الصلات الايجابية على مستوى آخر من الانفعالية : البحث عن الاعجاب من قبل الآخرين بتجميع أدلة الجدارة والاستحقاق أو القيمة الشخصية الثابتة ؛ البحث عن الشهرة أو المجد ببراهين القدرة والشجاعة والفضيلة ؛ أو بالعكس البحث عن الاكتفاء الذاتي في عمل منعزل .

نضيف أيضاً دفاع متوازن مجّازي مع ترحيل للانفعالات نحو الله فقط « فهو وحده لا يخدع ولا يهُمل » الاستعراض الدائم لكل أنواع الحرمان والكبت .

في شكلها التصعيدي ، أصبحت عقدة الاهمال فلسفة الوجود الانساني بشكل عام : فالانسان أصبح « مرمياً في العالم » فريسة للتخلي ولألم العزلة الذي يتعرَّض له حكمًا بشكل ميتافيزيقي .

بالنسبة لألفريد دي فيني (Les destinées) الأقدار ١٩٦٤ في « بيت الراعي » و« موت الذئب » و « جبل الزيتون » كما بالنسبة لبعض الوجوديين البائسين فالتخلي والابتعاد هي مواضيع توحي بعدة مؤلفات . إلى جانب هذا التنوّع الموهن للنفس يوجد أيضاً تنوع عدواني وإدعائي حيث تسيطر اللعنات ضد الله وضد الانسانية (مثل أغنيات مالادور ، دي لوتريامون) .

٣ ـ **في شكلها التعويضي** ، تصبح عقدة الاهمال حاجة جامحة بإعطاء الذات إلى الآخرين ، كلعب دور الأم بالتضحية بالذات بالعطاء المادي والعقلي والفكري بالاهتمام بكل من لهم علاقة معه ، ورغم أنفهم ، كل ذلك يحدث بشهوة عاطفية لا تُروى . . . « كي يَشعر بحب الآخرين نحوه » وذلك بتجميعهم ، على الأفضل ، على مستوى علاقة عاطفية تامة .

الأصول التاريخية . ـ يُعتَبر الحرمان العاطفي خلال الفترة المقتصرة على العلاقة مع الأم فقط المنبع الأساسي لهذه العوامل أي بين الولادة وعمر السنتين . خلال هذه المرحلة ، إنّ كل قصور عاطفي أو ابتعاد من قبل الأم أو من ينوب عنها ، له دوي طويل المدى . فالولد كثير الحساسية لكل عدم اكتفاء من « حصته العادية » من الأكل والحب والحرارة والتداول العاطفي من « الجلد للجلد » وهو حساس أيضاً لكل تباعد طبيعي أو عاطفي .

يمكن أن تُحدث خيبات الأمل العاطفية في سن المراهقة ميلاً زائداً

للاهمالية . ما ينبغي تدوينه من التجميعات العقدية الممكنة بين عقدة الاهمال وعقد أخرى مثل المنافسة الأخوية (صدمة الولادة لأخ صغير أو لأخت صغيرة ثم حسد وشعور الآخر المفضل) ، الذنب ، النقص ، الفشل . . .

II ـ عقدة المنافسة الأخوية

وتعرف أيضاً « بعقدة قايين » (بودوين) أو عقدة التطفُّل أو التعدي » (لا كان) ، يُعتبر أصل عقدة المنافسة الأخوية الحسد الناتج عن وجود طفل صغير في البيت أو طفلة ، ويعبَّر عنها في عمر الرشد بالحسد عدواني تجاه كل من هو قابل للتأثر باجتذاب الأفضلية ، تنافس للوصول إلى الأفضل إلى المديح وإلى التقدير . . . ميل يعتبر كل موقف على أنه موقف تنافس بالنسبة لمتساوين في جذب الحب والمحبة والصداقة وتقدير كل شخص معتبر أنه عظيم أو موزع إكراميات .

أن يكون الشخص حاسداً لما يملكه أو لاستيعابات الغير ، إنها لردة فعل عامة وطبيعية وينبغي تمييزها عن الميول العاطفية المعقدة من ناحية المنافسة الأخوية ، مهما اتخذت هذه الأحاسيس ، بالنسبة لفرد مصاب بهذه العقدة بُعداً أكثر مأساوية . تكمن الأشياء الأساسية في العقدة في إدراك ورؤ ية المنافسين ككل وفي كل مكان ، وفي إتهامهم في الاستئثار بالحسنات والاكراميات التي تعتبر من ملكهم بدون مطالبة ، وفي

الشعور بإجبارية المكافحة للمحافظة على امتيازاته ، . . . والسير بشكل عدواني وانتقاصي وحُقدي وإكراهي بالنسبة لأولئك الذين يدركهم كمنافسين . . . وذلك بانتقادهم وبعدم اعتبارهم في نظر الرجال العظام العامين ، ومن تم إضاعة كل تقدير شخصي وكل انتباه معار لهم من قبل الآحرين وحاصة من قبل الذين يحبونهم أو يعتبرونهم .

المطلوب دائمًا الصف الأول وبشكل حصري ؛ والصراع دائمًا من أجل ذلك ، فمن أجل ذلك يتم البحث مباشرة أو بتكتم لاستبعاد المنافسين الحاليين أو المحتملين .

في ذكريات الطفولة ل . غوت يذكر أنه رمى من النافذة كل آنية المائدة في البيت عندما ولد أخوه الصغير . المقصود هنا ، يقول فرويد عدوانية استبدالية مع الحركة الرمزية في الرمي خارجا ما يعتبره دخيلا وذلك باشباع غليله من أدوات مائدة الأهل بشعور أو تصرف موجه ضدهم أيضاً .

روى ج . روبن (الأحقاد العائلية ص . ٦٤) الحالة التالية : « عمر لزوج ٣٠ سنه . بعد أن رزق المولود الأول وبعد تصرف الأم الطبيعي تجاه ابنها المولود الجديد إذا اهتمت به كثيرا وبشكل انفعالي ، بدأ الزوج يتذمر من الأرق والسهاد ومن انزعاجات مختلفه ، مما اضطرت زوجته للنهوض ليلاً والاعتناء به . اتخذ صوت هذا الرجل في آلامه طابع البكاء الصبياني . على الصعيد الطبي لم تظهر أية

أسباب عضوية لذلك » .

يذكر بودوين (في نفسية الولد والتحليل النفسي ص ٢٧٠) أن المنافسة الأخوية هي في أساس الكثير من الأحاسيس الاجتماعية عند الراشدين . بشكل خاص التذوق المفرط للعدالة ، المطالبة بعدالة متساوية لجميع الناس ، أبعد من القيمة الأخلاقية لهذا المثل الأعلى وعلى درجة معينة من الانفعال ، هناك تصعيد للمنافسة الأخوية ومطالبة « الأفضليات الأهلية » التي استفاد منها الأخ أو الأخت في مرحلة الطفولة .

نعلم أن التوازن والتعويض هي مسائل كلاسيكية في سيكلوجيا الطفل : التوازن يحصل بجهود تضفي قيمة شخصية على مجال آخر ، والتعويض يحصل بإخفاء سلوك الحماية والتضحية والكرم على ثاني البكر المحسود .

الأصول التاريخية . ـ إنها أحاسيس الحرمان التي يشعر بها الطفل الكبير عند ولادة أخيه الصغير أو عندما نهتم به أكثر (بشكل خاص عندما نلبسه من ثياب أخيه أو نعطيه ألعابه) كل ذلك يولد هذه العقدة ، فهذا لا يحصل عند الصغير في البيت (ففي هذا المجال نلاحظ عقدة النقص أكثر . . .) .

نلاحظ أيضاً أن الكبير يحسد الثاني ولكنه لا يحسد الثالث حيث يصبح الثاني حسوداً من الثالث . فهذه العقدة تظهر بوضوح عند البكر لأنه عاش أولاً بقوة بشكل « الطفل الوحيد » ومركزاً اهتمام الأهل حوله .

هناك بعض الارتباطات بين هذه العقدة وعقد الاهمال والنقص والفشل ومع عقدة حب الظهور .

III - عقدة الخطر أو اختلال الأمن

لا يتم التطور العاطفي السوي حسب رأي ش . أوديه (المرجع السابق ص ٢٢) إلا إذا تم تكوين الأمور التالية تباعاً : الاطمئنان ، وتقييم الذات وأخيراً الاستقلالية الذاتية مما يؤكِّد الضمانة على أساس ذهني متوازن .

إن عقدة الخطر (التي تصبح عصاب ألم في شكلها الخطر) تزعزع كل إمكانيات الأنا وتبلغها في كل أبعادها الأساسية من « هدف » ودفع نحو المستقبل .

ما يؤثر أولاً عدم التأكيد المضطرب ، وقلة الثقة بالنفس وبالمستقبل والقلق من الغد مهما كانت شروط الحياة الحالية التي تحقق بالعكس ضمانة أكيدة .

إن حالة الاضطراب المرضي الدائمة ، كتب أ . مونيه (دراسة في الطبع ، منشورات السويل ١٩٤٩ ص ٢٣٨) تتواجد لأي سبب وتتعلق بالأكثر معنى . فخوف المضطرب لا يثبت مطلقاً ، لكنه ينتقل من هلع إلى هلع ومن تنبؤ بالشعور إلى تنبؤ آخر . . . انتظار ، تباعد ، أسفار ، مخارج ، مشاريع ، أمراض ، ومفاجآت . . . أعذار مختلفة تقابل كل نوع من الاضطراب . يشعر أنه غير قادر

بشكل تعيس (مقابل كتلة الأحداث غير المرئية) فيقوم بتجميع كل دفاعات الطفولة كي يجرِّب ، عبثاً تحويل ضجيج مخاوفه إلى بوليصات التأمين ، حواجز أبواب ومنظار نحو الخارج ، إحكامات في الأفعال وأحراز ، نذورات ، استشارات الحظ ، هوس وشعائر ، أحياناً هرب مؤقت وتبديل منزل متكرر » .

يسيطر الخوف والاضطراب على الوجود ويمكن أن يكونا منتشرين وثابتين ويمتاز هذا الوجود في إحدى أشكاله بالانزعاج « الخوف من النقص » الخوف من الحادث والخوف من السرطان والأمراض وأخيراً الخوف من الموت . يُغزّي هذه المخاوف ارتجاف مستمر نوعاً ما خفياً ، يلتهب بأزمات حادة في بعض المناسبات .

يتميز المضطرب بعدم القدرة العقلية على التمييز بين الممكن والمحتمل مما يجعله يُزيِّف كل حججه ويغذّي كل تكراراته بمنطق مشوَّه . وبالواقع من الممكن أن يكون نزيف في اللثة إشارة إلى مرض السرطان كما يمكن أن يؤدي حادث سيارة أو الانزلاق على قشرة موز على الدرج إلى الشلل مدى الحياة . من المحتمل أيضاً أن تموت في الساعة التالية . لكن كل هذه الامكانات تبقى غير محتملة الحدوث ، أي لها حظ الحدوث بنسبة أقل من ٥٪ كمعيار للمجاذفة الذي يعتبر عملياً عدم مخاطرة .

يعتقد المضطرب أن كل هذه الامكانات قد تحدث له في وقت واحد وأنه معرَّض للعوز وللسرطان وللحادث والوقوع عن الدرج

معاً . . . وأشياء كثيرة أخرى . إلا أن احتمال حدوث هذه المشاكل تباعاً هو بنسبة خمسة من مليون ، على الأكثر . أن حساب هذه الاحتمالات وهذه النسب المئوية هي نوع من التقريبات المضخمة فقط .

إذن ، لا يعرف المضطرب إلا الامكانات مما يفسح المجال أمام مخاوف يُقال عنها قياسية . ترافق عادة هذه العوارض اضطرابات نفسية ـ جسدية (انزعاج في الحلقوم ، عدم إحساس في الأطراف ، تشنجات مختلفة ، آلام عقلية ، صداع) وكل ذلك يزيد في عدم الاطمئنان .

١ ـ **بشكلها الرؤوف** . تجعل عقدة الخطر الفرد يعيش في خوف وتزيد من خطر الميل نحو الهموم وتجعله يغضب من كل شيء .

٢ ـ **بشكلها الخطر** . تجعل الفرد في ألم بدون أسباب موضوعية مع ما يرافقها عادة من اضطرابات جسدية من أرق ومن دعر .

٣ ـ **أشكال التوازن** ، تتواجد في تنظيم الضمانات المتعددة متيحة الشعور في العزلة أو في التواجد في رعاية لرؤ ية مثارة بتفوق مع أبواب سلام متعددة وأوتار قوس مختلفة .

فائدة . ـ لا نستطيع أن نسمي « توازناً » البحث المطلق عن أنواع التسلية (ما أطلق عليه باسكال « الابتهاج » كنسيان إرادي) وأشكال أخرى من اهروب . مُصعَّد ومُعقلن ، تغذي هذه العقدة فلسفة

متشائمة عن الوجود . فكون الحياة هي من أجل الموت هي بنية غير معقولة من هذا النوع ، لأنها تخلط الهدف الحقيقي مع المصير الانتلوجي (لا يمكن أن يَردْ على فكر إنسان تعريف سيارته بأنها خلقت للحديد المبتذل) .

معوّض . ـ تتحوًل عقدة الخطر عن تهورٍ مجنون وعن عصيان نحو الموت ، كي يحقق الشخص عدم وجود الخوف عنده . من هنا كانت المجازفات الخارقة ومآثر خداع الموت . وعلى درجة أخفـ تصبح مهزلة الموت واختيار هذا الموضوع يصبح للأعياد والبهجات .

الأصول التاريخية . ـ فيما عدا عدوى القلق العائلي نذكر : وجود الطفلِ غير المطمئن بوجود المشاكسات بين الأهل وعلاقاتهم السيئة أحياناً به من قصاصات تفرض من قبلهم أو من قبل الأخ الأكبر (أو الأخت الكبرى) مضطهد دون إمكانية الرجوع إلى الأهل ، علاقة عدم اطمئنان أمام الأب ، عدم ثبات معالم الوجود في الطفولة ، التسمم الديني أو الصحفي للنكهة الموضوعة حول الموت والكوارث ، تعميم الاكتشافات الأولى (دون معارضة لمعرفة الاحتمالات) للصدمات المحتملة وبشكل طبيعي للمأساة والصدمات المختلفة التي تثير القلق بين سنتين وثماني سنوات .

هناك ارتباطات ممكنة مع عقدة النقص وعقدة الاهمال وعقدة الفشل .

IV ـ عقدة الخصي

نتجاوز الآن « عقدة أوديب » حسب تعريف التحليل النفسي الأساسي التي يعمل منها شيئاً آخر عن « مجرَّد عقدة » ولأنه يضعها في أساس كل أنواع العصاب . تظهر بعض نتائجها في عقدة الخصي التي تعرف كما أشار إليها المحللون النفسيون وإلى صلتها مع عقدة أوديب المحلولة خطأ وسنتكلم عنها إذا في هذا المجال .

من المفروض وصف المظاهر المفيدة من عقدة أوديب (ولكن مظاهر فقط) ، بشكل خاص أهمية النموذج المعاكس للأم بالنسبة للفتاة والنموذج المعاكس للأب بالنسبة للصبي ، في التكوين غير الواعي للمواقف أو « للسمات والطبع » وحتى في مستوى الحياة (حسب معنى أدلر) . بالنتيجة عندما تكون علاقة الأم وابنتها والأب وإبنه سيئة وولدت الشعور بالحقد تنمو علاقة معاكسة توجه الراشد نحو تصرفات وأنماط ردود فعل تُعتبَر نقيضاً منهجياً لهذه التصورات . حتى أن إدراك دور الأم أو الأب يتميز بالنموذج المعاكس ، وهكذا تتميز المبادىء (التربوية والسياسية والفلسفية وغيرها) التي يعتقدها الفرد نتيجة تصوراته أو التعبير عن شخصيته .

هناك المظاهر المضادة أيضاً ، مثل صورة الأم (والسلوك الأمومي في هذا المعنى) التي يبحث عنها الزوج في زوجته ويتوقع ذلك منها ، أو صورة الأب (والسلوك الأبوي في هذا المعنى) التي تبحث عنها الزوجة في زوجها وتتوقع ذلك منه .

هناك حالتان خاصتان استحقتا التسجيل :

ـ من جهة تطور العمل العدواني أو الحقد نحو الأب عند الصبي ، عندما يشمل كل أشكال السلطة (بما في ذلك سلطة أعراف المجتمع) ، تصبح هذه الأحاسيس عدوانية وحدة تخريبية منهجية مقابل الترتيب الاجتماعي المدرَك كواجب تعسفي (نـرى هنا « الاسقاط ») وليس حسب مـا هو حقيقـة (تنظيـمًا للحياة الاجتماعية ، تنظيمًا قابلاً للتقدم لكنه يتطلب المشاركة) . . .

ـ من جهة ثانية فصيرورة التطابق مع الأهل من الجنس الآخر ومع رمي الخوف من الأهل من نفس الجنس بعيداً تتعقلن العقدة في اللواطة . فاللواطة « على مستوى الحياة » ، عندما لا تكون تشوهاً في الغدد الصماء أو التشريح تعني ما أطلقنا عليه (المرجع السابق ص ٥٦) « عُصاب الطبع » .

لكن لنصل إلى عقدة الخصي

سوف تُعرَّف هنا في معناها الدقيق من الصعوبة في تأكيد الذات شخصياً وبشكل استقلالي ومسؤ ول . « فالخصي » مأخوذ بالمعنى المجازي . نستطيع أن نقول أيضاً « قطع الجوانح » لنعني فعل تحويل قوة الحياة المستقلة والتحقيق الذاتي للأنا . فالأم المخصية أو الأب المخصي يعتبران كأنماط من الأهل يمنعون أولادهم عملياً من التحرر السوي ، وينجحون في الاحتفاظ بهم في حالة الطفولة والاستقلال خوفاً من ضياعهم ، ربما ، أو بشكل من الحب يضمهم ويخنقهم .

يحَكى عن أم « جشعة » أو عن أب « ساحق » .

كتب رينه لافورج (في سيكو مرضية الفشل ص ٦١ ـ ٦٢) في هذا المجال : « كم من العذارى ، دون أن يكنَّ بحاجة للهرب ، ضحَّين بفتوتهن وجمالهن وحياتهن لأمٍ أوجدت لهن واجب متصلب يرفض بهجة الحياة . . . بمبادئها الخاصة ، عند الصبي ، تبحث الأم المصابة بعقدة الخصي عن خنق كل مظاهر الرجولة في البويضة . وإذا كان ذا طبع معين تشن عليه حرباً بلا هوادة لتحطيم « رأسه السيء » وإذلاله وتخجله من نفسه بخلق نموذجٍ من النقاوة ذات طابع أنثوي . إنها تبذل ما في وسعها لخصيه أخلاقياً لأنها لا تستطيع ذلك جسدياً .

من الطبيعي أن تستطيع جعل كل تقلبات التحرير المستحيلة متمثلة بصعوبات قبول الكائن التناسلي الخاص ، لأن تأكيد الذات بشكل سوي في جميع المجالات يمر حتمًا بتقبل الشخص جنسي وحياة جنسية مستقلة . نفهم من ذلك دراماتيكية « امتلاك عضو جنس ذكري » ، موضوع تفضيل « لاكان » شرط ألا نرى بذلك قصة حقيقية إنما أسطورة رمزية . هذا ما نطلق عليه إسم مغالاة وإلحاح مشبوه « إغتصاب العضو الذكري الأبوي » عند الصبي أو الرغبة في « إمتلاك عضو ذكري » عند الفتاة ، إنها مجرَّد رغبة في تحقيق الذات وتحقيق الحرية (بمعنى التصرف بحرية بنفسه ») رغبة أساسية ونوعية عند الأنا (بنسوانجر) رغبة تحتوي تأكيد الذات ضد قوى العبودية والحرمان التي يمارسها الأهل المصابين بعقدة الخصي . يجب ألاَّ نخلط

بين الرموز والحقيقة (مثل هذا الخلط يعتبر إحدى ميزات الهذيان) ، وفهم ما يعنيه إخراج التحليل النفسي حول « العضو الذكري » وما ينتج من القتال حوله أو نزعه أو الغيرة منه أو حسده ؛ المقصود تحولات في إرادة القدرة في صراعها ضد كل من يسعى إلى تحويلها نحو عدم القدرة » .

عندما تتمركز عقدة الخصي يعني أن تأكيد الذات قد إنطفأ أو أصبح مستحيلاً بفعل غير قصدي ، من أهل مصابين بالخصي أو بسبب صدمات نفسية جعلت كل مبادرة شخصية غير ممكنة بسبب الذنب أو حتى كل عقوبة عند الولد والمراهق ، خاصة خلال المراحل الخمس الحساسة ؛ التبرعم وتفتح الارادة والقدرة (في الثلاث سنوات وظهور الأنا مرتبطة بأول سلوك معارض ؛وفي عمر الأربع سنوات تظهر الحشرية الجنسية مرتبطة بتحديد الـذات ككائن جنسي ؛ مرحلة ما قبل المراهقة أو « العمر العقوق » التي تتميز برفض مرحلة الطفولة وانتقاد العادات العائلية ؛ وأخيراً المراهقة ورغبات الانعتاق والتحرر واتخاذ الموقف الحر . نهاية المراهقة وتعتبر مرحلة وضع القيم المقبولة وإرادة « تذوق حياته » .

وفي حال أُجبر على الامتناع عن هذه الدوافع وهذه المحاولات أو شعر بالذنب المرتبط بفكرة القصاص أو الخجل أو الآلام ، من المفهوم أن الفرد عندما يصبح راشداً وهو مصحوب بعقدة الخصي يشعر بصعوبات في تأكيد ذاته في مختلف مواقف الحياة : بالنسبة للجنس

الآخر ، بالنسبة لرفاقه في المجتمع أو في العمل ، وبالنسبة للسلطات الاجتماعية في كل المواقف حيث عليه أن يُعبِّر عن نفسه ويدافع عنها ويؤكد ذاته ويستطيع المجابهة وفرض وجوده .

يتكاثر الخجل والعزلة ؛ فالخوف من ازعاج الآخرين أو عدم إرضائهم يُشل كل المبادرات وتحمل المسؤولية . تتطلب هذه المبادرات جهوداً متعبة للسيطرة على الميل التلقائي للهرب أو للترك . فالبحث عن الاطمئنان يجعله مشتتاً وضعيف الارادة . يحدث ميل إلى ترك كل إرادة شخصية معتقداً إنه بذلك يحافظ على تقدير وحماية الآخرين . فالوقوف في معزل لا يعني الشهرة أو التعبير عن الرأي ، والوقوف تحت غطاء لا يعني التطوُّع . . . كل هذه التصرفات تُعتبر تصرفات عادية . فالانتصار (على المستوى العاطفي والجنسي والاجتماعي والعقلي) والمطالبة ، والمصارعة والمناقشة لانتصار وجهة نظره ، والدخول في تنافس إعطاء قيمة لذاته ، إعطاء الأوامر . . . كلها تصرفات غير ممكنة ومتعبة ومزعجة . ففي الحالات الأكثر خطراً ، تصاحب عدم القدرة الجنسية أو البرودة الجنسية صعوبات اجتماعية في تأكيد الذات .

١ ـ **في أشكالها المتوازنة** ، يتم البحث عن تأكيد الذات خلال أوضاع اجتماعية تتيح بحد ذاتها ، ممارسة سلطة ذاتية ، بتأثير المظهر الخارجي أو المركز المميَّز . كما يمكن أن يتم البحث عن تقييم الذات في قطاعات سهلة المنال وأكيدة ، مثل (الذين يعتبرون موهوبين

جسدياً) تنمية القوة الجسدية بالممارسة الحادة دون إدخال فكرة المنافسة أو (بالنسبة للذين يعتبرون موهوبين ذهنياً) تجميع الشهادات والألقاب أو إتقان فنٍ أو تقنية معينة حيث يكون مجال التنافس ضعيفاً .

يتم التوازن في حالات أُخرى بحياة مزدوجة ذات طابع سري للغاية حيث تتيح الاشباعات الودية تحمُّل عدم التأكيد الرسمي للذات ، حياة جنسية مثيرة سراً ، أو الانتماء إلى زمر خفية أو مجتمعات سرية .

٢ ـ **في أشكالها المتصعدة** ، يصبح حب العزلة فضيلة ، ويصبح الخجل قيمة متسامية . يرسم الخضوع ورغبات الطاعة واجبات الحياة . يشتد نفي الذات ويتحقق بفلسفة معينة أو بعلم ما ورائي أو بديانة يمكنها أن تعيد كل إرادة القدرة إلى صف الأنانية ، منبع كل أنواع عدم الأخلاقية .

ليسمح لي القارىء بأن أذكره في هذه المناسبة أنه لا يوجد في ما أقوله ، أي اعتراضٍ ذي قيمة محتملة مثل الرصانة ، أو حب الغير أو اللطف أو نقاوة العادات . تتميز العقدة دائمًا بردود الفعل المتعددة . لا أُناقش هنا مسألة التعرف إذا كان الخجل مثلاً هو قيمة بحد ذاته أم لا ؛ بينما أقول بأن تصعيد عقدة الخصي يحوِّل الخجل من الذات إلى شوق مغطّى بالقيمة المهانة . بالعكس تتميز إرادة القدرة السوية عن الارادة المسيطرة المتعجرفة والسادية التي تعبر عن العقدة نفسها ولكن بشكل تعويضي .

٣ ـ **في أشكالها التعويضية** . تظهر عقدة الخصي بالبحث المستمر عن التفاخر بالقدرة على تثبيت الذات ، لأن ميكانيزم الدفاع (المرجع السابق ص ٥٣) يهدف إلى نفي العقدة ولا يترك منها شيئاً يظهر على أعين الآخرين (بدون أن تدرك الأنا القدر نفسه ، بإضافاته في هذا المنحى المعاكس ، يبدو الضعف نفسه بالشكل المعاكس) .

عندئذ تتجه إرادة القدرة نحو البرهان المستمر للعرض الجشع ففي المجال الجنسي تظهر الدونجوانية (نسبة إلى دون جوان Donjuan) (تظهر القدرة بعدد الانتصارات) والاغراء عند المرأة . لا ينتهي الطابع المسيطر والطابع السلطوي في المجال الاجتماعي من تقديم الأدلة على قدرته ، مستفيداً بشكل سادي من سلطة القصاص والخجل كي يظهر على أنه السيد المطلق ، دون أن يملك بالفعل شخصية قوية ، مما يجعله أخيراً قاسياً وغير مفهوم ومسكين .

عند أولئك الذين لا يستطيعون الاحتماء وراء الوضع الاجتماعي تسبب عقدة الخصي العدوانية والحدة والحاجة إلى السيطرة الفعلية الخشنة ومن ثمَّ التبجح بمواضيع القدرة والانتقامات المخيفة .

عند المرأة بدل من أن تكوِّن سلوكاً إيجابياً (كما قالت فرنسواز دوبون في عقدة ديان) يؤدي التعويض الاجتماعي إلى أنواع من السلوك الرجولي من الافراط في السلطة غير العاطفية والعدوانية والخشنة التي تتجه في الوقت نفسه إلى توازن شعور النقص عند الجنس

ـ النسائي (عقدة ديان أو الاحتجاج الرجولي عند المرأة) .

فقد تمت رؤية الجذور التاريخية منذ البداية . من الملاحظ أن سحق تأكيد الذات يحصل أيضاً من السيطرة القسرية من جهة الأهل (مثلاً أم مسيطرة يقال عنها « أم ذكرية ») التي تقوم مثلاً بعملية الافراط في الحماية لطفلها (مثل تصرف الأهل الصبياني من قلقهم أو خوفاً من العزلة) أو بعملية الوقوع بالذنب (ابتزاز عاطفي لانتزاع ذبذبات المعارضة أو المبادرات االفردية) ، أو أخيراً بالمسافة الخلقية (أم مدهشة أو أب فخور) تحطم عند الطفل التطابق مع النموذج المتعذر تجاوزه والمتناقص . هناك ترابط معروف مع عقد النقص والذنب والفشل . . .

يمكن أن نجد مثلاً مأساوياً لهذا الترابط المعقد في الرسالة المشهورة إلى أبي ، للروائي الشاعر التشيكي فرانز كافكا :

أيها الأب العزيز ، سألتني يوماً لماذا أدَّعي الخوف منك . كالعادة ، لا أعرف ماذا أُجيبك بصدد الخوف بالذات الذي ينتابني منك . . . فمجرَّد جلوسك على الكرسي ، تسيطر على العالم ، فقط رأيك هو الصحيح وفيما عدا ذلك فجنون وتطرّف وعدم سوية وانحراف . . . فالشجاعة والقرار والثقة والفرح الذي ينتابني عند التماس هذا الشيء أو ذاك لا يبقى مطلقاً عندما تكون معارضاً أو عندما أفترض معارضتك فقط . فأمامك أكون قد أضعت الثقة بنفسي وأُجمع شعوراً كبيراً بالذنب » .

من المعروف أنه في شتاء ١٩٢٣ قبل وفاته بالسلّ في عمر ٤١ سنة كتب كافكا : ها قد مرت ليلتان وأنا أتف الدماء ؛ أستطيع أن أقول بأني مزقت نفسي . فالتهديد القاسي الذي تعود والدي عليه أصبح باطلاً سأمزقه لك كالسمكة . . . يتحقق هذا التهديد وقتياً بعيداً عن ذاته .

٧ ـ عقدة الذنب

إنها عقدة أولئك الذين يعيشون ، بشكل شبه دائم ، في الشعور بالخطيئة ، خوفاً من العمل السيء ، وفي خجل دائم من نفسهم ، وبتأكيدهم سراً بأنهم لا يسيرون حسب القاعدة ولا يستحقون السعادة أو بكل بساطة الأفراح والملذات التي تقدَّم لهم في هذا الوجود .

مـهماً يلفت النظر ، باديء ذي بدء ، في خفايا الفرد المصاب بعقدة الذنب ، نوعٌ من العناد الأخلاقي ، من الافـراط في الضمير الأخلاقي : وبذلك تتضخّم الأخطاء والنواقص وتأخذ شكلاً دراماتيا كأخطاءٍ لا تغتفَر ، تصبح الأفعال صعبة بزيادة الوساوس ، كما يتطلب الواجب أعمال تقريباً لا تنتهي بحيث أننا نشعر وكأننا دائماً على خطأ . . فالاتهام الذاتي والتوبيخ الذاتي تبقى ردة الفعل الدائمة لكل عمل لا ينجح فيه .

في حال نظرنا إلى هذا الضمير الأخلاقي عن كثب نجد أنه ليس

بحالة سوية . ذلك لأنه رتيب (إنه نوع من التصرفات اللاإرادية وليس فكرة حية) إنه مطلق (يجهل نسبية الأخطاء) إنه سادي (يحرِّض على الامتصاص والعذاب بشكل حتمي دون أن يثني أو يبتهج) . ليس بالضمير الأخلاقي بالمعنى الصحيح (أي القدرة التي بإمكانها تقييم الخير من الشر بالنسبة إلى قيم مقبولة تكونت بحرية) ، لكن الأنا الأعلى كما وصفه فرويد هو تكوين مرضي نما مكان الضمير الأخلاقي وكأنه ضد الأنا « أحمق وشرس » (أ . هيسنارد) ، وليس كنموذج أخلاقي وضعه الأنا لتنظيم مشاريعه .

يعتقد الأنا ، بتعرضه لمراقبة قاسية لهذه الحالة الأخلاقية المريضة ، إنه مدَّعى عليه من هيئة محكمة شديدة تدين إدانة صعبة (الموت) دون مراقبة الأحداث .

يشعر الفرد حسياً بمثل هذا الموقف المحتمل : وهو يرى في الآخرين (الناس الذين يتكلمون في الموضوع أو يشاركون معه) حكاماً ويدرك في نظرهم الادعاء عليه : من هنا تتولد حاجته للتخفي وبشكل خاص لوضع قناع على وجهه ، وهو قصد يظهر أحياناً باقتناء نظارات سوداء كبيرة بشكل دائم (دون ضرورة بصريه لذلك) . يعيش المستقبل وكأنه على وشك الوقوع في خطر المصير فهو يسمع كل ملاحظة وكأنها توبيخ ضمير أو إنه يعيش في قلق دائم بأن أمره سيُكشف إذا كان عنده بعض الهفوات يتألم منها (كذب أو تأخير ، فكرة عدوانية نحو بعضهم ، لذة معينة أداها سراً ، نسيان . . الخ) .

يؤدي هذا الخوف من الخطأ الممكن قبل القيام بعمل ، إلى التردد واجترار النتائج الممكنة ، وبعد العمل يأتي الشك الملازم (هل قمت بكل ما يجب القيام به) والخوف من الفاجعة الجزائية (قلق وعقاب) .

يسرد أ . هيسنارد (في عالم الخطيئة المرضي ص ٢٨ ـ ٢٩) أقوال بعض زبائنه : « يبدو أنني مهدد بضربة مصير مخزية على وشك الحدوث . إنها لخطيئة قمت بها ، لكني لست بحاجة للبحث عنها . . . أنا أخجل من أن أكلمك عنها أو أن أكلِّم الآخرين لأني أخشى من أن يهزأوا مني أو أن يكرهوني ، أو يشككون بي ، في حين أنني لا أفعل شيئاً قصراً . أتصور دائمًا وكأن المصائب ستأتيني لوحدي أكثر من الآخرين . . . وكأنني سأعاقب بهذا العقاب الذي أصبح لا يُـحتمل » .

من المعتقد أنه في الحالات الخطرة التي تتجه نحو العصاب ، تظهر عقدة الذنب وقلقها بوساوس ومؤامرات طقسية لتجنب الألم أو تذكر الخطأ (إذا كان خطأ أخلاقياً بالتأكيد) .

يمكن اختصار عقدة الذنب وتجميعها بالمظاهر التالية : إحمرار الوجه منذ اللحظة التي يدرك فيها أنه ملاحَظ وخوف من الاحمرار (مرض رهبة الاحمرار) ، النفور من بعض الأشياء ، خجل من الذات ومن الجسد ومن الوجه ، خوف من الجنون الخ . . . في بعض الحالات لا يسمح باللذة (الجنسية بنوع خاص) إلا إذا رافقها الألم

(كالعض أو الضرب أو النخذ الخ . . .) .

نجد هنا بعض مظاهر الماسوشية (اللذة في الألم ، عقاب ذاتي يمكن أن يصل إلى مرحلة قطع أو بتر بعض الأعضاء في الحالات العصابية الخطيرة) .

من المحتمل أن يصل الشخص المصاب بهذه العقدة إلى اقتراف الجرائم كي يُصار إلى معاقبته (بعد أن يعرض نفسه كي تنكشف جريمته) .

هناك ارتباط وثيق بين عقدة الذنب هذه وعقدة الفشل ، فالفشل هو إذن من جهة نوع من الترجمة المادية للعقوبة من قبل الحظ (أو الصدفة أو الله) مع الشعور بأن « عدم الحظ يرافقها » (عقدة المصير المشؤوم) ، من ناحية ثانية أن النتيجة اللاإرادية للطريقة التي تعهدها ، بدون ثقة بنفسه وضمن التشعور الدائم بأن « هـذا سيفشل » .

١ ـ **أنواع التوازن** .ـتتواجد أنواع توازن عقدة الذنب في البحث المكثف عن الاستحقاق في مجال خاص ، هل يكون بتحمل الألم بشكل مدهش أو بالتضحية بحماس لتهدئة أو تعرية عذاب الغير . فالكرم ورعاية الآداب هي إحدى أنواع التوازن ، وبشكل عام كل أفعال الافتداء تنبع من هذا الاتجاه . يمكننا أن نضع هنا من جهة ، ما يمكننا تسميته « عقدة الخلاص » التي تكمن في تحمل كل خطايا الناس وهمومها ومشاكلها كي يحررهم منها ، من ناحية أخرى ما أُطلق عليه

« عقدة لوهز غرين » التي تكمن في التخلي عن مباهج الحياة في سبيل الذات وذلك بتأمين السعادة للآخرين لكن هذا الهدف لا يلبث أن يضمحلّ .

٢ ـ **التصعيد** . ـ في حال صُعِّدت عقدة الذنب تصبح فلسفة الانسانية المذنبة والمخطئة ، مثل إسقاط الخطيئة الأصلية منذ فجر الانسانية (آدم وحواء) . ففي هذا الاتجاه ، يرى فرويد في الدين نظام كبير تآمري لعقدة الذنب ، إنما هو نفسه تصور في Totem et tabon (١٩١٣) إنه « في العشيرة القديمة حصل اغتيال رب العائلة » مما يدل على أصل الشعور العالمي للذنب ! ترتبط عادة بهذه الفلسفة أخلاقية التوبة وتقبل الألم .

٣ ـ **التعويض في عقدة الذنب** ، يعمل التعويض على إيجاد المتهمين الكبار الذين يكونون عادة بحاجة إلى تصحيح ذاتهم وتصحيح عدوانيتهم تجاه المسؤ ولين عن الشر . بكل ضمير حتى يقف الفرد كحارس للقيم وكمراقب لا ينكسر ولا يرحم أخطاء وإعوجاجات الآخرين ، ومن ثمَّ يكتشف الضحية التي سببت كل هذه السيئات .

يعطينا النص التالي لشارل فوريه مثلاً واضحاً عن التعويض المصعَّد ، وهو عالم اجتماعي فرنسي مشهور ومبدع لنظام سياسي (العالم الجديد الصناعي والمجتمعي ١٨٢٠) يتميز بإزالة التجارة وقيمة الدراهم .

كتب بعد بضع سنوات في « الكتيبة (فصلاً عن ميكانيزم المضاربة بالأسهم المالية) هذا النص عن حادث عن حياته في سنة ١٧٧٨ :

« إذا أردت أن تكتشف حيل البورصة والسماسرة عليك أن تعمل مثل هركول . أشك في أن يكون الإله النصفي ، بتنظيفه إسطبلات أوجيا ، قد شعر بالانزعاج بقدر ما شعرت في التعمق في هذه القاذورة من الأوساخ الأخلاقية التي يسمونها مقمرة البورصة والسمسرة ، وهو موضوع لم يعالجه العلم بعد . يجب في معالجته استخدام ممارس نظيف مع عدّة ويكون قد نما مثلي منذ عمر الست سنوات في حظائر التجارة . ولقد لاحظت منذ هذا العمر التناقض الواضح بين التجارة والحقيقة . فقد تعلمت في المدرسة وفي الدروس الدينية إنه يجب ألاَّ أكذب مطلقاً ، ومن ثمَّ أُرسلتُ إلى المخزن كي أُروَّض على المهنة الشريفة مهنة الكذب وفن المبيع . صُدمتُ بأنواع الغش والحيل هذه ، حاولت سحب الباعة الجهلة منهم وكشفت لهم الحقيقة . حاول أحدهم خلال تذمره أن يكشف لي بفظاظة حقيقة أمره فكانت هزيمة مذلة لي . . . « هذا الولد لا يصلح مطلقاً للتجارة » . . . بالفعل جعلته يشمئز مني بينه وبين نفسه وقد قمت في عمر السبع سنوات التعهُّد الذي قام به هنيبعل في التسع سنوات ضد روما : فحملت حقداً خالداً للتجارة . . . وإني لا أكون شيئاً إذا مارستها وأردت أن أكشف أمرها .

الأصول التاريخية : ـ يعود تكوين عقدة الذنب ، حسب رأي

فرويد ، إلى آلام الخصي ، التي تتصل ، لكونها تأنيب متوقَّع ، بأحاسيس العقدة الأوديبية (المرجع السابق ص ١٨) . وهناك منابع وجذور مختلفة من شأنها المساعدة في عقدة الذنب ؛ أولها التربية على الاعتراف بالذنب أو الابتزاز العاطفي (« إنك تخجلنا » « إنك تميتنا » « إذا كنت تحبنا فلا تعمل ذلك » الخ . . .) .

تشكل إحساسية الشعور بالذنب المتأتية من الفضولية الجنسية وللاستنماءات اللاحقة جزءاً من الجدول . أضف إلى ذلك شعور بالذنب الذاتي ، خلال المراهقة عند التحسس بأولى الرغبات الجنسية .

إن مأساوية الخطيئة مع التهديد بالاهانة الإلَهية (التربية الدينية العصبية) أو أن الغول يقضمه (التربية بالخوف) تؤدي كلها إلى النتيجة نفسها عندما تُمارس منذ العمر الفتي . هنا قد تتمركز صدمات أخلاقية وتشكل عقداً : مثل جرح وقع لآخر سهواً وعوقب عليه . (في المدرسة مثلاً) ، مسؤولية أخلاقية عن حادث ، خجل يشعر به بعد محاولة جنسية قام بها منحرف الخ . .

هناك ترابط عقدي ممكن مع عقد الاهمال والاطمئنان وعقدة الخصي والنقص . . . . كما مرَّ معنا .

VI ـ عقدة النقص

سنذكر في حينه عقداً أخرى ، مثل عقدة ديان (مرَّ ذكرها في مكان

سابق) عقدة التفوّق (أو عقدة الذكاء) وعقدة حب الظهور (المذكورة سابقاً) .

إن عقدة النقص هي التأكيد الصادق بأن الشخص ليس على المستوى المطلوب وبأنه غير كفؤ وبأنه محكوم عليه هكذا ، أو بأنه شخص يهُزأ منه أو أنه مجال للسخرية . من هنا الصعوبات الموجهة للآخرين (بالتأكيد لمجهولين) ، الخوف من الجمهور ومن الجماعة إذا ما شارك في عمل جماعي ، وأشكال أخرى من الكبت أو « التعب الاجتماعي » . الخجول هنا غير المعقد بعقدة الذنب ، إنه نوع من التخويف من النقص ، ومقارنة للانخفاض الذاتي المستمر بالنسبة للآخرين . من هنا كانت الرغبة في الهرب والاختباء « وبأن يكون صغيراً في زاويته الخاصة » للتخلص من الهزء . في الاختبارات يصبح الهروب والخضوع للفشل بخوف مسبق من الفشل .

يصبح التعبير عن النقص الذاتي ظاهراً بالسلوك والهيئة العامة والمشي والصوت واللباس . ويصبح عنده رغبة في عدم الشهرة .

المقصود هنا إذاً اضطراب في التقدير الذاتي ، مع الشك في كفاءاته الخاصة أو في حظه بالنجاح ، عدم تقدير لنجاحاته المتوقعة (المحدثة بالصدفة أو تحت تأثير شفقة الآخرين) ، تعظيم عوائقه ، وبشكل عام تقدير متدنٍ لأفعاله وتقدير مترفع للآخرين .

تأخذ عقدة النقص بشكلها العادي مرتكزاً لها الفروق الفردية التي عاشها الفرد بشكل منتقص . يعتبر هذا كنقطة ضعف أوعائق

فيزيائي أو عاهة أو شائبة فنية (حول العين ، بقع حمراء « بقع نبيذ » ، ارتداء نظارات ، أنف بشكل بوق أو كمنقار النسر ») ، عادة مضحكة ، أو نقص ذهني أو اجتماعي (الانتماء إلى مجموعة مثقفة ولها اعتبار في المجتمع المحلي ـ مثل مجموعة تلامذة المدرسة مثلاً ـ كمجموعة متدنية) . تتعمم عقدة النقص من هذه الناحية المضرة وتبلغ مجمل الأنا : الأنا الودي والأنا الاجتماعي في غمرة تأكيد عدم الحصول على التقدير أو الحب أو التقييم بشكل رصين .

في بعض الحالات تصبح الشائبة الفيزيائية حيث تتمركز كل مشاكل النقص ، هدف كل حصرة ، مثل حصرة الجسم الكبير عند الفتيات القويات أو عند بعض التفاصيل « الجسدية المخيفة » التي تكون مدعاة للسخرية .

١ ـ **إن أنواع التوازن في عقدة النقص.** تتواجد « بنتيجة ميكانيزم دفاع الأنا) في التقييم الشخصي على مجال غير المجال الذي يكون فيه الشعور بالنقص وارداً ، وبإمكانه إقامة التوازن . يتوقف النجاح على الاستعدادات : فالضعيف البنية يصبح قوياً بالمواضيع ، في حين ينمي الضعف الذهني القوى الجسدية أو العطاء الفني ، واصفاً في هذه الاتجاهات استبسال متناسب مع العقدة ، ومتأملاً بذلك إحداث الاحترام لشخصه والاعتبار (مضادات السخرية) .

٢ ـ **عقدة ديان كحالة خاصة .** ـ يقابل هذه العقدة (المسماة من قبل بودوين) ما أطلق عليه أدلر « الاحتجاج الرجولي عند المرأة » وما

اطلق عليه كارين هورناي « الهروب من الأنوثة » . إنها نتيجة دفاع الأنا ضد النقص الذي خصت به ذاتياً المرأة . يؤدي رفض الوضع النسوي (للأنوثة ، الأمومة ، السحر والتذوق النسائي حسب القوالب الثقافية) بالنساء إلى إتباع خطوات الرجال وتقليد لباسهم وعاداتهم ومن ثمَّ مسؤوليات يقوم بها الرجال عادة .

٣ ـ أنواع التعويض في عقدة النقص: في أشكالها التعويضية ، كي ينكر الأنا نقصه أمام الآخرين وأمام ذاته ، يحاول البحث عن التفوق في الطريق نفسه حيث يتواجد النقص .

يبدو أن التعويض يمكن أن يكون قصدياً وإرادياً كما يمكن أن يكون آلياً لا واعياً ودفاعياً بشكل صرف . في هذه الحالة الأخيرة تولد عقدة التفوق : مع التصنع بثقة كبيرة بالذات وتفاخر بالثقافة والمعارف ، إلحاق النقص والهزء بالآخرين ، وكبرياء واعتزاز ورغبة في جذب الانتباه إليه . في طب الأمراض العقلية الاجتماعية (نقل إلى الفرنسية ١٩٧٥ ـ ص ٤٨ ـ ٥٢) يصف الطبيب النفساني الفيلسوف الايطالي ديزرتوري ما يطلق عليه اسم « الاستجابة الذاتية المضخمة » ، التي تمت ملاحظتها عند بعض الحيوانات كي يخبئوا خوفهم أمام أعدائهم ، ويعتبره نوع من التورم الفيزيائي للدفاع . عندما يتمركز هذا التعويض حول القيمة العقلية ، يصبح الكلام بشكل دقيق عن « عقدة الذكاء » . عندما يتمركز على الرغبة في جذب انتباه الآخرين يقال عنه (مع بادوين) « عقدة حب الظهور »

(الحاجة بأن يراه الغير ، الحاجة للظهور ، لاعجاب الآخرين لاتخاذ مواقع ، يعتقد دائمًا بأنه يُـمثل ») .

عند مثل هؤلاء الأفراد نجد رضى ذاتي مؤكد ودائم ، ورغبة جنونية في التطلع في المرآة أو الاستماع لأنفسهم يتكلمون ، غرور يتميز بشكل خاص بإسم النارسيسية .

عندما يكون التعويض نتيجة جهد إرادي ، يكون انتصار حقيقي على نقص حقيقي لم يتقبله الأنا .

كتب براكفيلد زميل أدلر في كتابه « أحاسيس النقص » ص ١٥٥) : « إن أفضل سبّاح حول هنغاريا وهو بالوقت نفسه لاعب ماهر في « واتر بولو » ويدعى « أوليفر هالازي » ؛ هذا اللاعب المشهور هو وحيد الساق . لكن حالة جلين كاننغهام الذي حصل على الرقم القياسي العالمي في ١٥٠٠ م هي أكثر شهرة . جُرح جلين وهو طالب في رجله بسبب حادث نزع له أصبع رجله اليسرى الكبير . وقد قرّر الأطباء بأنه لا يستطيع المشي بدون عكاز . حاول الولد التخلص منه (العكاز) وركّز كل اهتمامه على أشكال الحركة اللازمة لذلك . بعد أن توصل إلى المشي بدون عكاز اهتم بالسباق على الأرجل وحصل على الرقم القياسي العالمي للألف وخمسماية متراً في ١٦ حزيران سنة ١٩٣٤ » .

٤ ـ **التصعيد** : يؤدي تصعيد النقص إلى مفهوم الوجود ومفهوم الأخلاق بالمقارنة مع ما ينتج عن تصعيد عقدة الخصي ، أي إلى تأكيد

عقلاني لنقص مقبول ومتحول إلى قيمة .

من المفيد وصف تصعيد التعويض ، الذي يعتبر عقلنة استرداد القدرة والعدوانية . تُعرف هذه الظاهرة في السياسة ، حيث أن الأقليات (نقص سياسي) ومجموعات البنية الاجتماعية المتخلفة (نقص اجتماعي) يخلقن أيديولوجية العنف الشرعية . بينما على المستوى الفلسفي والميتافيزيقي يولِّد التحول أيديولوجية القوة .

هكذا حدث مع فريدريك نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) وهو ولد هزيل تمّت تربيته على أيدي نساء أردن تنشئته على التحسس والامتثالية والشفقة الدينية ، أُعفيَ من الخدمة العسكرية بسبب ضعف تركيب جسده ، نما عنده ابتداء من سنة ١٨٧٠ (بعد صدمة إعلان الحرب وفي الرؤية المدهشة للأعمدة الألمانية الذاهبة إلى الجبهة) مفهومه الشهير للانسان المتفوِّق ، فلسفة إرادة القوة والسيطرة . كتب في (هكذا تكلم زرادشت) : « لماذا هذه الميوعة ، هذه الطراوة ، وهذه الرخاوة ؟ لماذا الجحوذ والتفاني في قلبك ؟ وقليل من المصير في نظرك ؟ إذا لم ترد أن تكون من المقادير ومن القساوة ، كيف تستطيع أن تنتصر معي في يومٍ من الأيام ؟ أجل فالخالق على أنواعه قاسٍ . . . والأقسى قلباً فيهم هو الأشرف . . . »

لقد ذُكرت الأصول التاريخية في وصف حالة العقدة . ونذكر بأن « المرحلة الحساسة » للنقص الكلي تتمركز حوالي ٦ ـ ٧ سنوات ، في الهنيهة التي يتفتح فيها الضمير « لكونه صغيراً » وهو عاجز بالنسبة

للأقوياء وللكبار ، ومرحلة أولى المشاكل الاجتماعية (أن يكون أو لا يكون « مثل الآخرين) ، بالنسبة لبقية التلاميذ أو لقساوة زمر الأولاد الطبيعية نحو أولئك الذين لا يتكاملون مع الجماعة . تعتبر المراهقة المرحلة الحساسة لمختلف أنواع الفشل الشخصي ، وعلى هزء الآخرين ، وعلى إدراك العوائق الفيزيائية والاجتماعية .

أضف إلى ذلك سيئات تربية النقص التي تحصل غالباً مع الأهل منذ العمر المبكر وبصيغ مختلفة يعتبرها الأهل أنها مثيرة (« أنت مسطول » « أنت دجاجة » « أنت لا تصلح لشيء » « أنت غير قابل للتهذيب أو للعقل » . . . مع هذا الرأس الذي تملكه لا تأمل بشيء » ، « أنت من نسلٍ لا يرضى إلا أن يبقى مسحوقاً » « ليتك كنتِ صبياً ـ يقال للفتاة ـ وليتك كنت بنتاً ـ يقال للصبي ـ الخ) .

هناك ارتباطات معقدة ممكنة مع عقدة التنافس الأخوي ، ومع عقدة الذنب وعقدة الخصي .

باختصار ، هذا الاطلاع على العقد الستة الكبيرة يمكن أن يبدو قصيراً جداً أو طويلاً جداً . قصيرة جداً لأولئك الذين يفكرون أن الأنماط المعقدة في تنظيم العلاقة بين الأنا والعالم الخارجي هي عملياً عديدة بقدر ما هناك أفراد . وهي طويلة جداً بالنسبة لأولئك الذين يعطون امتيازاً لهذه العقدة كي يجعلوا منها أساساً لكل العقد الباقية .

قد يكمن الشيء المهم في أوصاف هذه العقد في إفهام نمط وتركيب العقد الشخصية ونتائج الجهود التي يبذلها الأنا لاجتياز هذه

الصعوبات . أجل فالأنا أصبح ملزماً مع مصادره بقوة . بإمكان العقدة إذا تركت لحالها كجهاز جزئي للادراك ولردة الفعل بإمكانه أن ينظم وأن يغيرٍّ السلوك ويستطيع فرضها على الأنا في حال عدم قدرته واستقالته ، أو مجابهته كقوة قادرة أن تقاوم التآمر الناجم عن العقدة تارة بميكانيزمات الدفاع اللاواعية وطوراً بالوعي نفسه هذا ما سنتكلم عنه في الجزء الأخير من هذا الكتاب .

الفصل الثاني

عقدة بلا أسماء
من الحياة العادية

لقد قلنا سابقاً أن كل إنسان ، من ناحية البنائية المبكرة لعلاقة الأنا بالعالم الخارجي وإنطلاقاً من خبرات عمر الفتوة والصدمات الطارئة (تجارب حية في نص من المعاني المتعلقة بالعمر) ، ينمي ، إذا شاء أم لا ، أصنافاً من الادراك الارتكاسي ، وأنظمة فهم لمواقف الحياة واستجابات لهذه المواقف التي تعتبر عقداً يمكنها جعل فهم المعطيات الحالية وتلاؤم فعالية السلوك مضطربة .

هنا تكمن كل مشكلة الذاتية المتصلة بالمعاني العاطفية الشخصية التي نُسقطها على مواقف وجودنا ، تتلاحم ردود فعلنا العفوية مع هذه المعاني ، حتى ولو كانت مجموعة المعاني وردود الفعل غير معقولة مطلقاً . لنفرض مثلاً أن شخصاً بعد المرور بعقدة شخصية ، مثل هذا الشخص (بعيداً عن كل تناسق مع العادات الاجتماعية الثقافية) يدرك « التعبير متحرراً من أحاسيسه » كموقف حيث يصبح

معرضاً إلى خطرٍ (المجازفة بالسخرية ، المجازفة بالعقاب ، خطر تأدية سلاح للغير ضد نفسه ، خطر عدم التمكن من التدقيق في أفعاله . . . الخ) . يصبح تصرفه المتمم المنطقي لهذا الاعتقاد ويصبح متميزاً بإمكانية تجنب هذا « الخطر » ، يعني أولاً « التجنب الصادق والبسيط لتعبير كل الأحاسيس الشخصية بحضور آخر متعلق بهذه الأحاسيس (مما يؤدي إلى وجه قليل الحركة ، إيماء سيء أو قليل التعبير ، صوت بلا انطباع عام ، هيئة باردة . الخ . .) ، ثمَّ بتمييع أو سخرية كل تفسير شعوري لحركاته وأقواله ، والمزاح البزيء في التعبير العاطفي عند الآخرين ، وأخيراً بهرب مفاجىء أو إنفجار عدواني دفاعي إذا مارس الآخر صدفة بشكل أو بآخر على هذا الشخص ضغطاً على الاعتراف بالأحاسيس .

لنفترض أن هذا الشخص هو رجل وإن عنده شريكة زوجية أمرأة بحاجة ، بسبب عقدة خاصة بها ، أن تظهر لها الحب بشكل دائم وعليه أن يزينها ويدللها . . . في مثل هذه الحالة سيزداد القلق عند الزوج والكبت عند الزوجة في الوقت نفسه .

I ـ حاجات العقد النفسية وردود فعلها في الحياة الشخصية التي يقال عنها سوية

بشكل عام ، يمكننا التأكد أنه عند الأفراد الأسوياء ، تتمركز العقد الكبيرة التي شاهدنا أوصافها وأشكالها ، في أهداف دقيقة ، وعلى مواقف غير محدودة تقريباً ، وعلى أفراد أو أصناف من

الأشخاص . . . ويتم التعبير عنها بحاجات متميزة .

من الطبيعي أن تصادفوا أشخاصاً يقدمون جداول كلينيكية كبيرة موصوفة سابقاً بشكل تعويضي أو بشكل متوازن : إلا أن الأكثر رواجاً هو « العقدة الصغيرة » ذات النطاق المحدود ، وهي لا تقل قدرة عن إفساد العلاقات بين الأشخاص وبشكل واضح في العلاقات الزوجية . إن لائحة هذه النقاط المريضة تصبح طويلة جداً إذا أردنا متابعتها .

١ ـ التمركز في أشياء أو مواقف محددة . ـ لنأخذ مثلاً عقدة الذنب : يمكن أن تُوجز عند البعض بتمركزها على المال ، وعند البعض الآخر على العلاقات الجنسية ، وعند غيرهم على الجسم بالذات ، وعند آخرين على نوع اللباس ، وعند البعض الآخر على موقف المطالبة الشخصية بحقٍ ما . الخ . . .

لنفرض أن العقدة كانت عقدة مال . هذا يعني أن الشخص المعني ليس على « وفاق مع المال » ولا في المواقف حيث ينبغي التكلم عن المال . أو أن المال لا يصل بكثرة إلى يديه ؛ أو كأنه يريد التخلص منه بأسرع وقت ممكن ، أو بالعكس لا يريد تركه مطلقاً ويخشى من إضاعته أو من اختلاسه أو أخيراً إنه يتعامل مع المال بطريقة لا عقلانية فلا يتكلم عنه مطلقاً أو يشعر بالمرارة نحوه أو لا يستطيع التفسير إذا اضطر للحديث عنه .

لنأخذ عقدة الاحتشام التي تدور حول الجنس . هذا يعني أن

العلاقات الجنسية تسير بانتظام إنما بشروط عديدة أكثرها تافهة : مثلاً يجب أن تجري في الظلمة (إسقاط عقدة الذنب على الاثارات البصرية) ، يجب أن يرتدي الزوجان ولو قليلاً من الثياب (إسقاط عقدة الذنب على العري) يجب أن يكون المشارك الذكر هو البادىء بالاثارة (إسقاط عقدة الذنب على وسيلة الاتصال) يجب أن يجري ذلك بسرعة (إسقاط الذنب على الوقت الذي يُضاع) . هناك أسباب وشروط أخرى أكثر تفاهة قد يتطلبها العمل الجنسي كحمل قطعة غسيل في اليد أو العض أثناء الفعل الجنسي .

٢ ـ **التمركز على أشخاص** . ـ إن ميكانيزم كبش المحرقة معروف : يحل شخص محل شخص آخر كي يتحمل مسؤولية موقف أثار إنفعالات حادة ، في الحياة اليومية ، تنتشر مثل هذه المواقف بكثرة : كان هذا الولد كبش المحرقة لرفض الحياة الجنسية لأحد الوالدين في حال كانت مسألة الزواج غير مطروحة للمناقشة أو غير ممكن طرحها لأسباب أُخرى . فالعمل العدواني غير المعبَّر عنه ضد الأب يتحول بكل بساطة ضد المعلم (أو ضد كل المعلمين) . هكذا يمكن أن توجز أو تتركز عقدة فردٍ ما أو فئات من الأفراد ، وبذلك تصبح بالنسبة إليه « نوعاً من الهلع » إذا حدث لواحد منهم صدمة دون أن يشعر مـاًّ أثار أو نشّط عقدة معينة تبقى حتى الآن عامة وبطيئة : اعرف أشخاصاً لا يستطيعون أن يتحملوا الكاهن ولا المرضة ولا المدرِّس ولا كاتب العدل أو النساء السمينات أو صاحب اللحية أو مدخنين الغليوم . . . الخ . .

ينتشر التوازن مع الأشخاص . إن ذلك الشخص الذي يرتجف أمام رئيسه الذي لا يتحمله يتصرف كظالم في البيت ويعتبر زوجته كعبدة مخطئة .

من الطبيعي أن الشخص الذي تتوقع منه الكثير يسعى إلى تنمية « النقطة المريضة » للعلاقة المعقدة عامة إذا كانت تداعب دون أن تدري بشكل يقيني عقدة شريكه :

هذا الشخص المريض بعقدة الاهمال متفسخ بالوقت نفسه بعقدة جنسية نامية مع ميل نحو التلصُّص (اختار مهنة تتيح له رؤ ية النساء العاريات « ضمن عمل مهنته ») . ويشعر بالصاعقة لرؤ ية ملكة جمال ، لكن الزواج يخيِّب أمله لأن زوجته لا تتجاوب مطلقاً (على الأقل بالسخرية) مع متطلباته الاهمالية التي تفهمها . ولا تلبث أن تصبح تدريجياً نقطة تمركز عدوانية وردود فعل غير محدودة من جهة زوجها ، الذي يعتبر نفسه متكيف تماماً مع الحياة الاجتماعية ومع مهنته ومع كل الأدوار الأُخرى .

٣ ـ حاجات العقد النفسية . ـ تدخلنا الحالة السابقة في مجال الحاجات القوية دائمًا والمطلقة و « المبعدة » التي هي نوعاً من التعبير عن العقدة توجزها وتحدد مكانها .

يمكن أن تصبح هذه الحاجات دقيقة ومنتشرة (مثلًا ، الحاجة عند الرجل كي يُطاع فوراً عندما يعبِّر عن رغبة ، يُعتبر ذلك موجزاً عن عقدة التفوق دون مظاهرها الأخرى) أو دقيقة ومحدودة (مثلًا الحاجة

لاستقبال حار من قبل زوجته عند عودته إلى البيت ، يمثل ذلك تمركز عقدة الاهمال) . يمكن أن تكون هذه الحاجات إيجابية (الحاجة إلى التأكد بشكل دائم من الاقتصاد في الأعمال البيتية التي تقوم بها زوجته المصابة بعقدة عدم الضمانة المتمركزة حول الخوف من النقص من المال في المستقبل) أو سلبية (السخط من واجب أكل مأكولات باردة ، يحدث هذا عند فرد مصاب بعقدة الاهمال بشكل سوي ؛ أو الخوف من لمس أيدي الآخرين عند شخص غير مطمئن ويخاف ألاّ يؤدي هذا الاحتكاك إلى وصول الميكروبات إليه ومن ثمَّ الموت ، في حين أن لمس بقية الأشياء ، كالمال والأزرار والباب . . الخ غير مشحونة بالخوف نفسه : « يخاف من قطعه عن الكلام » عند معقّد بعقدة النقص حصلت عنده عملية التعويض الخ .) .

تظهر من هذا الصنف نفسه بعض حاجات الأنا المثالية فتغزي أحلاماً ومشاريع . كلنا يعلم بداية حلم مشهور عند جان جاك روسو (على منحدر هضبة مظللة حيث يوجد منزل صغير أبيض ذات نوافذ خضراء) ، معبراً بذلك عن حاجته إلى صداقة حميمة بمعزل عن الناس وفي أحضان الطبيعة الأم .

هناك العديد من النماذج المثالية من هذا النوع (وأقل شاعرية) تعبر وتوجز مخططات الحياة المعقدة : مثلاً طموح بلا قياس وإرادة القدرة ، عمليات التعويض عن الشعور بالنقص ؛ أحلام الموت الثنائي المتشابكة عند مُهـمَل عاشق بولع .

٤ ـ **مميزات الطباع المعقدة** (التي تكلمنا عنها ص ٦٧) التي تُعتبر نتيجة تكامل الأنا للحاجات المعقدة العقلانية . لقد وصفنا الشخص اُلمتقِن (ص ٦٦) والمرء المغلق (ص ١٠٨) والمغترّ (ص ١٠٠) . وتطول اللائحة لأن المقصود طريقة سلوك التي يمكن أن تكوّن من الطباع لكنها تكشف مصدرها المعقّد بزيادة وصلابة ممارستها : كالبحث عن إرضاء الجميع وبكل الأساليب ، أو القيام بكل الأعمال دون أن يثق بزملائه . (عقدة الأخطبوط) السخرية من الآخرين بشكل دائم (عدوانية تشير إلى عقدة إهمال متوازنة) ، الرغبة في التنبؤ بالتفاصيل مع معنى « مدهش في التنظيم » الذي يكمن في عدم ترك أي شيء للصدفة (عقدة عدم الاطمئنان المتوازنة) . . . يحدث كل ذلك كمميزات للطبع .

٥ ـ **التجهيز للاشارات والايماءات** . ـ يمكن اعتبار العقد التي لا تحمل أسماءً في الحياة العادية كردات فعل إنعكاسية لاشارات وإدراكات مكانية ، بحيث إنها تتداخل ، بالنهاية ، كإيماءات مطلقة لسلوك آلي . من وجهة النظر هذه تتقارب هذه العقد مع التجهيزات (الايجابية أو السلبية) . بعض الأشخاص لا يستطيعون تحـمُّل النظر أو الظلمة أو الجمهور وغيرهم لا يستطيعون لبس المايو أو الدخول إلى مصعد كهربائي أو التواجد ضمن مجموعة أو تحمل مسؤولية . . . فينطلق نوع من الانزعاج المباشر ذي عوارض فيزيائية عادة : (تشنج ، بداية تقيؤ ، حصر نفسي » في الحنجرة ، اضطرابات قلبية ، إصفرار وإحمرار الخ . .) .

دعيت إحدى زبائن فولب لوضع لائحة بالمواقف الايمائية التي تحدث ردات فعل في شلل السلوك مع ألم نفسي فوضعت اللائحة التالية حسب ترتيب تنازلي :

١) ملاحظات في التقليل من الاحترام من قبل زوجي .
٢) ملاحظات في التقليل من الاحترام من قبل الأقرباء والأصدقاء .
٣) السخرية والاغلاق علي من قبل زوجي .
٤) السخرية والاغلاق علي من قبل الأقرباء والأصدقاء .
٥) مشاجرات
٦) واجب التحدث مع جماعة
٧) حضور اجتماع حيث يوجد أناس كثيرون
٨) البحث عن وظيفة
٩) أنني أُترك على حدة عندما تتوزع الأدوار .
١٠) التحدث إلى شخص معين عنده موقف تسامح .

وهكذا كل فرد منا عنده نقاط حساسة (أو نقاط ضعف) في حال حسِّها تُطلق تصرفات آلية وغير متلائمة بحيث أنها لا تهتم بالحدث الآني وبصفات الموقف الراهن . بالفعل تبقى هذه التصرفات وردود الفعل غير حاضرة ، إنها إنطلاقات غير واعية وغير إرادية لردود الفعل المتهيئة التي تكونت في الماء .

II - العقد النفسية والحياة الزوجية

من الغريب أن نلاحظ أن عدداً كبيراً من الأزواج يحولون حبهم في بداياتهم الأولى إلى جحيم زوجي أو إلى عدم إتصال مميت ، مشاركة في التواجد عمياء وملحة . بين الأسباب العديدة لهذه الحالات المتعبة والمرضية تتداخل تنازعات العقد النفسية التي ينبغي أن نقول عنها بضع كلمات :

١ ـ **العقد النفسية ونهج « المتوقعات »** . ـ لقد أطلقت التعبير « نهج المتوقعات » في مؤلَّف آخر (سيكلوجيا الحياة الزوجية ١٩٧٤) للاشارة إلى المجموعة المكونة والواعية جزئياً للحاجات والأمنيات التي ينتظرها كل شريك من شريكه الزوجي . بشكل آخر كل زوج ينتظر من شريكه إشباع عدداً من الحاجات والعكس بالعكس ؛ يشتمل جزء من هذه الحاجات (التي تهمنا هنا) على توقعات إشباع وجودي من الطراز العاطفي ، كما يتطلب من الآخر تصرفات محددة وأنواعاً من السلوك ذات دور محدَّد أيضاً .

هذه التوقعات هي محددة بحد ذاتها لكنها ليست واعية إلا جزئياً بالنسبة للمستفيد أو المستفيدة وغالباً ما تكون غامضة ومجهولة بالنسبة للشريك الزوجي .

لنعود مثلاً إلى حالة المهمَل (مثلنا في ص **٧٥**) الذي يعلق أهمية أساسية (وذات قيمة في تجربة الحب) على الطريقة التي تستقبله فيها

زوجته عند عودته من العمل . نقول إن هذا الفرد عنده « توقع » قوي لهذا السلوك عند زوجته . هذا التوقع يُعتبر جزءاً من نظام من الحاجات والأمنيات الأخرى حيث أن سد فراغها بالنسبة إليه يشكل السعادة الزوجية . ففي مثلنا الخاص يعتبر الزوج واعٍ لهذا التوقع (لأنه يدلي به إلى الطبيب) ، لكن يمكن وضع فرضية تقول « بأن حجمًا كبيراً مهمًا من النهج هو غير واعٍ وغير متوقع منه ، ذلك بتحديد أفراحه وأتراحه خلال علاقاته الزوجيةً المثيرة بشكل كلي ، لزوجة هذا الرجل نهج من التوقعات شخصي . قد لا تكون واعيةً للأهمية الأساسية التي يتطلبها منها زوجها عند عودته من العمل كل مساء . بالواقع يجب أن تتوصل إلى إدراك ذلك عن طريق المقارنة لكنها لا تخصص لذلك ساعة تفكير وتأمل (لكونها تعيد خيبات الأمل الخاصة بها) ومن جهة أخرى لا يقول لها الزوج بوضوح ما يتوقعه منها بإلحاح حينئذ نكون أمام سيناريو معرَّض إلى أن يتكرَّر كل مساء ، سيناريو نستخلص منه النظرية العامة التي سنذكرها .

ولكن هل تقولون لي (خاصة إذا كنتما أعزب وعزباء) ، إن هذين المخلوقين قد أحبا بعضهما بعضاً ، ويجب أن يكون عندهما « حدس متبادل » بالنسبة لحاجاتهما العاطفية المتناسبة . ها هنا مسألة سيكلوجية في غاية الأهمية أدَّت إلى أبحاثٍ عديدة حول مسببات الحب أو « ضربة الصاعقة » (سيكلوجيا الحياة الزوجية) ولا مجال لبحثها هنا بسبب طول المدى . المهم هو الاستنتاج التالي أن ٩٠٪ من الناس المتزوجين (في حضارتنا الغربية) قد تزوجوا عن حب لا شك فيه

وعلى هذا العدد بالذات هناك ٩٥,٥٪ من الأزواج الذين سئلوا بعد ثلاث سنوات من زواجهم وأعلنوا بأنهم غير مسرورين في البيت (الاحصاء العام الذي نُشر في ١٩٦٩ في دائرة المعارف دي نويل ، « حياة الثنائي » .

ففي الكثير من هذه الحالات وقعت خيبة الأمل في نظام المتوقعات ، أجل يجب أن يكون بعلم الجميع أنه ليس المتزوجون وحدهم الذين لا يقولون بوضوح توقعاتهم العاطفية ـ اللاعقلانية (أو على الأقل الجزء الواعي من النهج) ، بل أن الشريك الآخر أيضاً لا يتصرف بالضرورة حسب السلوك الاشباعي المطلوب ، أي أنه لا يصل غالباً إلى السلوك الذي يحتاج إليه شريكه . وهذا التصرف لا يشكل جزءاً من مجموعة أحكامه . عليه أن يتعلمها .

من الطبيعي أن بنسبة مئوية معروفة تقدَّر بـ ٧٪ من الحالات يكون نهج المتوقعات مكتملاً بدقة (سنتحدث عنه لاحقاً) مثل الزوج ـ الولد والزوجة ـ الأم ؛ يكون الاشباع الزوجي المتبادل مكتملاً .

لنعود إلى نظام المتوقعات . تعود هذه الحاجات النوعية التي يتوقعها الشريك إلى ثلاثة أصناف ذات حدود غامضة : الحاجات النوعية الذكرية والأنثوية بشكل عام (مثلاً هناك فروقات أساسية بيولوجية وغير ثقافية ، بين علم الجنس عند الذكر وعلم الجنس عند الأنثى) الحاجات الطبائعية بالمعنى الصحيح (المتأتية من الـخُلق

والطبع الجنسي ومن نمط التوازن بين الأعصاب وإفرازات الغدد الصماء مثل السرعة والبطء في ردود الفعل وإعطاء القرارات ، الانكفاء على الذات أو الاهتمام بكل ما هو خارج عن الذات) ، وأخيراً الحاجات المتوقعة مصدرها العقد التي نتكلم عنها .

يمكننا القول بأن جزءاً كبيراً من السعادة الزوجية تعود إلى قدرة كل من الزوجين على فهم نهج المتوقعات عند الآخر وإلى إشباعه بنسبة كافية والاشباع يجب أن يكون متبادلاً .

٢ ـ النظم المتناظرة والنظم المتممة . ـ نطلق على « متناظرة » (صفة غير صالحة بمعناها الصحيح) الحاجات المعقدة المتشابهة عند الزوجين لا بل المتطابقة . ونطلق على كلمة متمِّمة نظام الحاجات التي تتجاوب مع بعضها البعض وتندمج ، فيما يحمل كل من الشريكين من أشياء تبهج الآخر .

القانون السيكلوجي هو التالي : تولِّد النظم المتناظرة بالضرورة الخيبة المتبادلة ومن ثم النزاع والابتعاد العاطفي أو انحطاط قوى أحد الشريكين ؛ تولد النظم المتممة الاكتفاء والبهجة المتبادلة وتعزيز الحب الزوجي .

الأمثلة كثيرة حولنا وما علينا إلاَّ مراقبتها . لنأخذ حالة الزوج والزوجة عندما يريدون اتخاذ القرار النهائي وإدارة العمل المنزلي والكلمة الأخيرة في المناقشة متوقعاً من الآخر الانقياد « بالمحبة » كالعبد أو على الأقل كتابع . ها هنا حالة الأنظمة المتناظرة ، ولا نجد

مشقة كي نرى فيها إرادات القدرة المعقدة بقدر ما تكون هذه الحاجة عميقة عند هذا أو ذاك ، ومطلقة وموجبة وتافهة (لا مبالٍ في تنوّع المواقف وفي التعقيدات الراهنة) ، ومتهيء لتفسير تصرفات الآخر بتعابير الارادة المسيطرة وتعابير الفوقية أو ضعف الارادة في الاستقلالية .

إليك هذا المثل التافه : تلقّى الزوج القابع وحده في البيت مخابرة هاتفية من صديق يقول فيها بأنه سيأتي لقضاء عدة أيام في المنطقة . دعا الزوج صديقه وعرف أن ذلك يرضي زوجته . وعند عودة الزوجة انفجر الوضع بينهما بسبب دعوة الصديق . فقد وجدت السيدة عدة أسباب كي لا توافق على الدعوة ولم يبدل الزوج رأيه وعنده حجتان أساسيتان (كان بمفرده وكان يتوقع أن يعمل على إسعاد زوجته) .

بالواقع ، ليس هذا المحتوى الخاص (الدعوة) سوى مناسبة لعرض الأنظمة المتناظرة للمطالبة بالقرار النهائي في العمل المنزلي . إلا أن المشكلة الأخيرة ـ وهي المشكلة الحقيقية ـ لم تُصاغ لكن النزاع توسع ونما متمركزاً حول المحتوى (دفاعات وتحقيقات) .

لنأخذ أمثلة من أنظمة المتوقعات المعقدة والمتمّـمة . هنا بالعكس يستجيب كل فرد لشريكه بشكل متبادل . يكون الزوج بحاجة إلى أن يلعب دور المواسي وتبحث الزوجة بالمقابل عن شيء تتذمّر منه : فالزوج يكون عنده ميل سادي معذِّب وتكون المرأة بحاجة إلى عقاب من النوع الماسوشي . فالزوجة تكون مغيلَمة Nymphomane

والزوج يصبح متلذِّذ بالنظر ؛ تصبح المرأة متسلطة ومسيـطرة وتصحبها عقدة ديان في حين أن الزوج يكون معقداً بعقدة الخصي وعقدة النقص وعقدة الفشل التي تولد عنده الخوف من كل مسؤ ولية والرغبة في العزلة عن كل قضية تجنبه اتخاذ القرارات ومن ثمَّ فهو يعيد دور المرأة في البيت (عقدة أورانوس) .

وهكذا ندرك التناسق الحاصـل مسبقاً من هـذه التوقعـات والاستجابات ومن هذه الأدوار المتممة .

٣ ـ **السيناريوات المعقدة** . ـ إنطلاقاً من هذه التوقعات ومضاداتها ومن الاستجابات وأنواع الحرمان ومضاداتها التي تميز لعبة العقد في العلاقات بين الأشخاص ، نلاحظ مجموعات أو سلاسل من الأفعال وردود الأفعال تنتظم وتتمركز مولدة ما أطلق عليها الدكتور الأميركي أريك برن العنوان الصحيح : سيناريوات .

بعد خمس سنوات من زواجه ، انتظر ألبير من زوجته أن تستجيب إلى حاجته بأن يكون مُستحسَن وجدير بالشفقة (عقدة الاهمال المتوازنة) ، هذا ، ما كان يتوقعه بإدائه عملاً من جميع الجهات (إرهاق يبغي إحداث استجابة متوقعة) . تجيبه زوجته مارتين (التي ترتجف لسلامة صحة زوجها خوفاً من مستقبلها كأرملة ، عقدة عدم الاطمئنان) يتراكم أنواع التأنيب عليه لكونه انضنى بشكل إرادي إنه لجواب لا يحتاج إليه ألبير وهو تعبير عن توقع أنثوي لا يراه . خاب ظن ألبير من جواب زوجته وغضب وقال كلمات جارحة استجابت لها

مارتين داخلياً بالألم وظاهرياً بموقف بارد (رفضت أن تتركه يرى ألمها) . عندها فسَّر ألبير ردة الفعل هذه كرفض مضاد مـما زاد في خيبة أمله . فانعزل . تُركت مارتين لوحدها فأخذت تبكي . وهكذا تخاصما وابتعدا . فبعد وقت يسير رأى ألبير أنه بحاجة إلى مارتين ، لكن خوفه من الرفض انتظر بلا حراك . وكذلك مارتين رغبت في لقاء ألبير لكنها قلقة من التعبير عن عدوانيتها (التي تردها إلى الإرهاق) إنتظرت بلا حراك أيضاً . لم يستطع أحدهما أن يخطو الخطوة الأولى » .

أصبح الاثنان كئيبين وتزايد الجمود حتى المصالحة وشعرا بأنهما تعيسان . قد تأتي مناسبة مثمرة وتتم المصالحة . . . عندها ينتهي السيناريو . وتعود الحياة الزوجية إلى طبيعتها حتى يأتي سيناريو آخر (متخذ من د . موكيالي ، سيكلوجيا الحياة الزوجية ص . ٦٦) .

توضح السيكلوجيا الحديثة ، بتحليل الأفعال المتصاعدة وبتحليل البنية الشكلية للاتصالات ، أنظمة المتوقعات والسيناريوات المتكررة ليس في الحياة الزوجية فقط إنما في العلاقات المهنية والعلاقات الاجتماعية بشكل عام .

من المؤكد أن استدراك هذه المتغيرات المستوعبة والمتفاعلة يتيح للأنا الانعكاسي كي لا يكون مخادعاً بعقدة . لقد قلنا عندما حددنا هذه المتغيرات إنها لا مبالية بالنسبة للبنية الحسية والحقيقية للموقف الراهن ومعرَّض بسبب عدم وعيه للتكرار كل يوم . تبدو معرفة وحل

هذه المتغيرات وكأنها تحُرِّر الأنا وبذلك يصبح هو نفسه ، أي أنه يجمِّع كل وظائفه للسيطرة ومسؤولية التصرفات ، واعياً لذاته ولشعوره بالواقع ومكتشفاً لمستقبله . . . إلا أن هذا الوعي ليس بالأمر السهل .

القسم الثالث

التخلُّص من العقد النفسية

عادة لا يبحث الفرد المعقَّد « بعقدة معينة » عن التخلص منها والشفاء . فقط أولئك الذين يعانون ألماً معيناً من عقدهم يريدون أو يفتشون على طريقة للتخلص والشفاء ، الذين يشعرون بعوائق في وجه الأنا في مبادراتهم وقدارتهم النسبية أمام ظهور التصرفات الآلية والانفعالات التي لا تُقهر والتي تثيرها بعض الأنماط من المواقف ، التي هي عينها دائماً .

فقط أولئك الذين لا يكونون مسرورين من ذواتهم يرغبون في التخلص من عقدهم « المنزعجين داخل جلدهم » أو بالألم الأخلاقي في النفس المتأتي من عدم تكيفهم أو من فشلهم أو من آلامهم . . . أو بالغضب ضد ذاتهم يرافقه عدم إمكانية التحقيق من الذات .

إلا أن هذه الحالة النفسية لا تتواجد إلا في حالات العقد غير المتوازنة ، أي العقد غير المتطورة بالتوازن والتعويض والعقلنة والتسامي . في هذه الأشكال الأخرى تؤدي دفاعات الأنا الداخلية

إلى نوع من أبطال تأثير التعب والانفعالات العائدة إلى العقدة . لا يوجد عدم الرضى عن الذات . فعلاً يبقى السلوك غير مرتاح وغير مطابق ، فالأنا ليس متحرراً بشكل تام ، لكنه يكون قد حلَّ مشاكله على طريقته ، والشخص المعني لا يقبل بأن يكون مفهوم الشفاء هو خارج اهتماماته ويكون بالعكس غاية المقاومة الدفاعية .

فقط العملاء الذين يتألمون من العقد « غير المتوازنة » يبحثون عن الشفاء ويتقبلون المساعدة .

بعد ذلك علينا أن نتفاهم على مفهوم الشفاء . فهو لا يعني مطلقاً التطابق الاجتماعي أو « التسوية » بالخضوع إلى الأنظمة الثقافية أو الاجتماعية السياسية . غاية الأساليب المؤدية إلى الشفاء هي في رد الأنا إلى كامل قدرته بأن يكون ، وإلى حريته الأونتولوجية ، وقدرته على فهم الحاضر بدل من أن يراه من خلال شبكات معنى مترسبة من الماضي والتي تعمل على إعوجاجه بشكل متأصِّل . فالشفاء هو إحياء المستقبل كبعد أساسي في القدرة على الإبداع وفي المشروع الشخصي .

يتعلق هذا المفهوم ، كما نرى ، بالسيكولوجيا الانسانية الأميركية الحديثة وبأفكار مؤسس التحليل الوجودي ، لودويك بنس وانجر[1] .

---

(١) ماكيالي ، التحليل الوجودي والسيكولوجيا المرضية الظاهرة البنيوية. منشورات ديسارت ، بلجيكا ١٩٧٤ .

الفصل الأول

الأساليب التي يمكن تجربتها شخصياً

I - عدم جدوى مسعى الارادة المباشر

بما أن العقدة هي بنية (ذاتية منظمة) من الادراك وردة الفعل السلوكية ، تظهر آلياً بموقف مؤشر أو بنوع محدَّد من المواقف هو ذاته دائمًا ، فتسلطها يعني عدم القدرة الراهنة عند الأنا ، إذن عدم قدرة « الارادة » .

لهذا لا يكون بإمكاننا الإلحاح كثيراً على بطلان المسعى المباشر للارادة كما لا نستطيع الاتكال أبداً على النصائح التي تذكر بإرادة الصبور .

هناك أصدقاء أمناء يقصدون مساعدة العميل على حل عقدة بواسطة النصائح من هذا النوع . كما أن هناك « خبراء بالمعالجة » يدعون التوجيهات الواعية فينصرفون بالأسلوب نفسه . كل هذه النصائح تؤدي إلى ثلاث متنوعات :

١) إستدعاء الارادة والاسترجاع الارادي ؛
٢) محاولة إيقاظ تأكيد الذات ؛
٣) مهاجمة الالتواءات المعقدة مباشرة أما بالتدليل على لا معقوليتها أو بتفسيرها » .

١ ـ **إستدعاء ارادة والاسترجاع الارادي** . . « انتفض » يقول المرشدون « لا تترك إنفعالاتك تسيطر عليك « لا تستقيل » قم بجهد معين » أنت تتمشى مع عادة سيئة ، سيطر عليها ! » . لا يستطيع العميل أن يجيب على كل هذه النصائح إلا بالقول « إنها أقوى مني » استنتاج يُعبِّر تماماً عن استقلالية العقدة الذاتية ، والمكونة خارج الأنا وخارج مراقبته .

وفي النهاية تتداخل مشكلة إرضاء المرشد والحفاظ على رابط عاطفي معه كعامل جديد للموقف وبدعم الجهد . لكن العقدة في هذه الحالة تغير في تعبيرها : سرد جيلبرت أجريس (في تحليل علاج الطب النفساني ص ٣٠) القصة التالية : عندما ماتت أخته البكر نمت عند المريضة (٥٦ سنة) ضغينة شديدة ضد أختها الثانية التي اتخذت في ترتيب أمور البيت مكان دور الكبيرة بالنسبة لأخواتها الأربع غير المتزوجات (المريضة هي قبل الأخيرة) ؛ عداوة تظهر بالغضب الحاقد والذي لا يُقهر . بما أنها ادعت أمام مرشد وعيها ، طلب منها بأن تبذل جهداً إرادياً لإيقاف غضبها » . فقد قامت بهذا الجهد ونجحت فيه . لكن منذ ذلك الحين أصبح من غير الممكن لها أن توجه الكلام لأختها . أدعت من جديد عند المرشد الذي طلب منها بأن

تقوم بجهد جديد لأنها نجحت خلال الجهد الأول » . توصلت إلى حل المشكلة بالجهد الارادي إلا أن مظاهر آلام جسدية بدت عليها ؛ آلام في العمود الفقري تعب عام ، عدم قدرة على المشي . . .

٢ ـ **إيقاظ التلقائية والعفوية والأصالة** . يمكن للمرشدين أن يلحوا على الفرد المعقَّد أن يتقبلِ ذاته ويكون تلقائياً (أن يقول ما يفكِّر فيه ، يظهر ما يتأكد منه داخلياً ، لا يصارع ضد نفسه . . .) ويتأكد من نفسه ويخلق شيئاً يُسرِّه أن ينطلق ويتحمل عدم التأكد من ذاته قليلاً . .

بدل من أن يدافع يبذل جهداً كي يجتاز المحنة ، يقول المرشدون « استرخِ » « كن طبيعياً » « خذ الأشياء كما هي » « إسمح لنفسك بالتحرك » . . .

يفترض بهذه النصائح التي تعيد الثقة وتبعد التشنج أن يكون بإمكانها أن تجعله ينسى ما يكتبه إرادياً أو يصبح كأنه اختفى . يحدث هذا كما يفعل المرشد بجعل العميل ينسى ألمه ويشفى ، منه .

لكن عميلنا المعقَّد لا يعرف الاسترخاء في المواقف التي تثير ردة الفعل الآلية . فرغم النصيحة ورغم المعرفة التي يمكن أن يمتلكها من الانفعالات التي يقتحمها في بعض المواقف وأنواع الكبت المختلفة التي تشلّه في هذا الوقت بالذات والمعاني الذاتية لهذه المواقف ولذلك فكلها لا تتغيرَّ . لنأخذ هذا الفتى الذي يكون « حساساً » إذا أراد التكلم مواجهةً ، أمام حفل أو جماعة ، فعند اللحظة ، فإن مربطاً من

الأحصنة المتوحشة لا يستطيع الجري إلى المنصة أو إلى المشهد » . هل تعتقد إذا قلنا له أن « يسترخي » أو أن يكون تلقائياً نستطيع أن نجعله يتغلب على هذا الموقف ؟

يستطيع الفرد الاستجابة بشكل أفضل ويصبح تلقائياً ويسترخي إذا توصل إلى إلقاء هذا النوع الدقيق من الالتزام من وجوده (التي يطبقها على الهرب) .

٣ ـ **المهاجمة المباشرة للألتواءات المعقدة** . ـ يكمن النسق الثالث هذا في الاسناد الرشدي في البرهنة على لا معقولية ردة الفعل وفي معارصته للحقيقة غير الممثلة والتافهة وفي إدعاء مخيلته » يظهر المرشد بلاهة الآلام والمخاطر المفترضة ، ودقة الاشارات التي يراها عملية في المواقف الراهنة والتي تثير انفعاله وسلوكه . يستخدم كل قدرته على الاقناع كي تتوقف أنا عميلة عن إبدال الحقيقة « بالصور الذاتية » دون أية صحة .

هذا النوع من الدفاع ضد لاإرادية إنعكاسية يقوم بها العميل لنفسه في غالبية الحالات . منذ أن يصبح خارج الموقف المؤشر يستأمن نفسه من جسده ولا يكون ذلك عمل إرادي . لكن في حين يرى نفسه غارقاً في الموقف المعقد يصبح تفكيره شبه مشلول ويشاهد ، مقيداً ، سير السلوك المتكرر .

حينئذ يصبح آخر مصدر للمرشد أو للمعالج هو مهاجمة الانحراف الأصلي بواسطة التفسير . لهذه الطريقة مراجع تاريخية : صاغ

الدكتور ديبوا المشهور من برن ، في مطلع القرن العشرين طريقة « للمعالجة بالفكر » تربية الذكاء ، تكمن هذه الطريقة في إبدال التمثيلات الخاطئة بالتفسير العقلاني » .

يقوم المعالج إذاً بإعطاء تفسير للانزعاج المصاب فيه الشخص وذلك بالعودة إلى الأسباب التاريخية وبواسطة المعلومات التي يقدمها له أو بصياغة تشخيص معين .

هنا ينبغي التمييز بين نوعين : التفسير الموجه إلى الذكاء ويستحدم المعطيات الحياتية الواعية ، والتفسير من نوع « تحليل نفسي فظ » الذي يكشف للعميل « المحرضات الحقيقية » لسلوكه ويتوقع الكشف الخشن « لمحتويات اللاوعي » .

لا تخلو هذه التفسيرات من المخاطرة : إنها مجرَّد افتراضات من قبل المعالج ، مستخلصة غالباً إما من أفكاره الشخصية أو من الجداول العيادية التي تفسِّر كل الأحداث . يصبح الخطأ خطراً عندما تجعل سلطة المعالِج المعالَج يعتقد أن هذه هي حقيقته (فن الاقناع) ، وأن مقاومته المحتملة هي رفض لرؤ ية محرضاته مواجهة .

عندما تكون هذه التفسيرات صحيحة ، تبلغ الذكاء وتعلم العميل شيئاً ما خاصة بعد أن ننقدها أمامه ، لكن تجربته المعاشة لم يصلها شيء ولم تتغيرَّ حتى الآن . في حالات التحليل النفسي الفظ يمكن أن يؤ دي الاعلان إلى تفاقم الأعراض . كتب فرويد (في تقنية التحليل النفسي ص ٤٠) : « في حال كشفنا للمرضى عن لا

وعيهم ، نحدث عندهم انتكاس صراعاتهم وتفاقم أعراضهم » .

إذا كان مجهود الارادة المباشر ، بشكل منعزل أو بتأثيرات المرشد ، باطلاً فلا يجوز أن يتبع ذلك التخلي عن العلاج . يمكن تجربة وسائل من شأنها تجنب الفشل مسبقاً قبل الرجوع إلى مساعدة العلاج الفعّالة .

II ـ الشعور باللاإرادية

نعلم صعوبات التحليل الذاتي (تحليل التصرفات وبواعثها بالتفكير الواعي ، وفهم كل ما يجري) التي ترتبط منذ قرن تقريباً بالقصور العاطفي ، والثغرات وعدم قدرة الاستبطان .

لا نكذب فقط على أنفسنا بسهولة عن سوء نية ، إنما تعتبر ناحية مهمة من شخصيتنا (لا بل الأهم) : اللاوعي ، يفلت من إستطلاعنا الداخلي .

من المؤكد أن الجواب المناسب هو التحليل الفرويدي الذاتي ، هذا ما حصل بين تشرين الأول ١٨٩٦ لغاية حزيران ١٨٩٩ (وهذا لم يحصل في يوم من الأيام) وكان إحدى المنابع الأصيلة للتحليل النفسي . إلا أن فرويد كان عنده تهيئة وخبرة ومحرِّض خارج الجماعة بالاضافة إلى نبوغٍ نادر .

أشار ديديه أنزيو (في التحليل الذاتي ١٩٥٩) بشكل مفصل إلى صعوبات التحليل الذاتي كي لا يشجِّع هذا النوع من المشاريع في

تحقيق الشفاء من العقد وبشكل خاص بطريقة الاستبطان بمفرده .

من غير المفيد بتاتاً أن يعتني الشخص بنفسه فقط كي يتخلص من عقده ، أو أن يغرق في ماضيه الخاص بحثاً عن ذكريات مؤذية ، أو في إعادة النظر في تفاصيل محتويات موقف كي يكشف عن الانفعالات المختلفة أو ردود الفعل الشخصية التي حصلت خلال ذلك .

كل تحليل تاريخي هو تافه ، إذا كان بالعودة إلى الأسباب التاريخية (لا يتم في أفضل الحالات ، إلا إعادة تركيب ذهني للأسباب المفترضة) أو إعادة تركيب لموقف يجري ويثير العقدة (أجل لن تتوصل إلا إلى تحقيق ردة فعلك ذلك لأن الادراكات ذاتها أصبحت مشوهة) .

تكمن الطريقة النادر فشلها ، بادىء ذي بدء ، في استدلال الثوابت الشكلية لتصرفك في المواقف النموذجية .

في هذا الهدف هناك مرحلتان : تحديد المواقف ، وصياغة السلوك المقولب الذي هو سلوكك في هذه المواقف .

من السهل ، نسبياً ، تحديد أنواع المواقف التي تثير السلوك المعقد غير الارادي ، أو المواقف التي تشعر فيها أنك منزعج ، والمواقف التي لا يمكنك تحملها لا بل المزعجة ، وتلك التي تتهرب منها عندما يكون ذلك ممكناً . ففي هذا الاتجاه بالذات يجب توجيه التحليل .

في مثل سابق ، لم تستطع الزوجة تحمل الهزء والانغلاق . هذا

النوع من التصرف ، جعلها ، عندما كانت مستهدفة متألمة بشكل يشل . ولاحظت أن كل ملاحظة نقدية موجهة إليها تؤدي بها إلى الموقف نفسه .

إليك إثبات مفيد للغاية التي نسعى إلى تحقيقها والمقبولة نسبياً .

يمكننا وضع لائحة من المواقف النموذجية من هذا النوع . يسير تحديد ردة الفعل لهذه المواقف جنباً إلى جنب مع توضيح المواقف المعقدة . من المفيد أحياناً ملاحظة ما إذا كان التشديد في المواقف (أو تجميع القوى) يؤدي إلى التغيير في ردة الفعل .

إذا ما سُيرَّ هذا الشكل من التحليل بشكل جيد فإنه يؤدي إلى صيغ عامة بتصفية الاحتمالات المتغيرة وانبثاق الشكل الأساسي الثابت .

« لقد أعرّتْ هذا الكتاب لهذا الشخص لأنه طلبه مني (مع شيء من الوقاحة لأنه لا يعرفني إلا منذ وقت قليل) . كنت متعبة ولم أستطع ذلك أو لم أتمكن من الرفض » ، قالت زوجة أخرى ، معبرة بذلك بشكل استردادي عن موقف ملموس . ثم تتكلم عن ملاحظة عامة : « فعلاً لا أستطيع أن أقول « لا » ، ولا أجرؤ على الرفض مطلقاً » .

لإتمام هذا النوع من الملاحظة على الذات ، يصبح الأنا غير قادر مباشرة على إرجاء التصرف المعقد ولو كان ذلك غريباً « بالتحديد » فإنه لا يتمكن إلا من تسهيل هذا البحث .

ما ينبغي تسجيله من السماع لهذا القرد وما يمكن جمعه من أولئك الذين يعرفوننا جيداً ، أو الذين يعيشون معنا والذين يلاحظون كل تصرفاتنا المتغيرة بسهولة أكثر مما نراها نحن . لاستخدام هذه المساهمة يجب أن نتجنب وضع الدفاعات الاجتماعية بحالة تأهب والتفكير فوراً بالفائدة الحاصلة من الاثبات المكتشف .

قالت السيدة للسيد : « مرة أخرى لا تتحمل غضبي ضدك وتقوم فوراً « بالعناد » وتغلق على نفسك في غرفة . ولا تجيب عندما أطرق على الباب وتفضل البقاء في الظلام ليومين أو ثلاثة أخرس ومستاء ، ورافضاً كل عروضي للمصالحة .

إذا كان سيدي لا يرغب في التعرف إلى تصرفاته فإنه سيجيب (دفاع اجتماعي ، تركيزية على موقف ملموس وجائز ، تحقيق ذاتي ، إتهام للغير بالمعاكسة) : « قد غضبت ، في هذه القصة بالذات لسبب تافه . لقد اشتريت بدراهمي آلة من بائع الصحف وهذه الآلة معطلة ، فأنا قد دفعت الثمن وكنت أعتقد أني ساجعلك مسروراً بها . أمام حماقتك وانعدام العدالة عندك ذهبت مشمئزة » .

لكن لو استطاع سيدي ، بدل إظهاره دفاعاته الاجتماعية المميزة ، استيعاب ملاحظة زوجته العامة في هدف الملاحظة الذاتية ، كان بإمكانه الاستفادة كثيراً : إذا كانت الملاحظة صحيحة ، فقد تعلّم شيئاً عن العقدة الثابتة وعليه أن يتحقق منه على حسابه الخاص .

مرحلة ثالثة من الملاحظة الذاتية هذه ، بعد تأكيد نتائج الملاحظتين السابقتين ، قوامها التساؤل عن المعنى المعطى لعناصر الموقف . نجد النقطة المرجع والتحقيق في السلوك ، بقدر ما يبدو السلوك المعقد لاعقلانياً باعتباره بحد ذاته ، بقدر ما هو « منطقي » بالنسبة للمعاني الظاهرة في الموقف المثار .

ففي قابلية التأثر الرهيفة التي جعلت المزاح غير محتمل وأدت إلى الانغلاق على الذات ، تنبهت الزوجة الفتية في مثلنا السابق بأنها شعرت بعدوانية (من جهة ذلك الذي يحول الفكر على حسابه) جعلتها تحس بأنها ساكنة وناقصة .

وفي موقف « الطلب » من الغير رأت المرأة في المثل الثاني أنها تدرك موقف محاكمة عقلية سيئة إذا أجابت كلا ، ولذلك فقد بحثت عن شيء يرضيه (أو على الأقل لا تزعجه) بالطاعة .

وفي المسرحية الزوجية حيث يتغير السيناريو مراراً ، يرى السيد أنه يعطي غضب زوجته معنى الرفض أو الابعاد ، وتكون ردة فعله بالابتعاد وإعادة عقدة الاهمال عنده .

لا أعتقد أنه بإمكاننا الذهاب أبعد من ذلك بالشعور ، لكن نتائج مثل هذا الجهد في ملاحظة الذات هي على أهمية بالغة .

إنطلاقاً من هنا ، يكفي التعرف إلى الميكانيزم الذي يلعب دوره في كل مرة وكشف النظام العقدي « إدراك ـ ردة فعل » في كل مرة

نستطيع رؤ يته بالفعل . دون أن نفعل شيئا اخر . في البداية تتعرف إليه بعد لقطة ، ولكن تدريجياً ومع الممارسة تتعرف إليه عندما « يتحرك » . إنطلاقاً من هذه اللحظة يبدأ بالذبول .

لماذا يذبل ؟ إنها مسألة مفيدة تربط سيكلوجيا الشعور وقيمتها العلاجية . دون أن تدخل في صراع بين علماء النفس في هذا المجال ، نقول بأن الوعي الفكري يبدو موهوباً بقدرة إناطة وحل المعاني المتأتية من المستوى الحياتي غير المتعقّل ، عندما تصبح هذه المعاني معروفة بوضوح .

III ـ إبطال التحسس المنهجي

هناك وسيلة أخرى للشفاء بواسطة القوى الخاصة وهي تكمن في الاستخدام الشخصي للتقنيات التي وضعها الاختصاصيون في علاج السلوك (العلاج السلوكي) .

١ ـ **الانجذاب الثابت عند آيزنك** . ـ إبدأ بوضع لائحة دقيقة للمواقف التي تقول عنها معقدة ، تلك التي تكون فيها مركز ردود الفعل التي لا تستطيع التدقيق فيها وجاعلة السلوك السوي غير ممكن ، وذلك السلوك الذي تتصوره دون أن تستطيع إتمامه . مواقف مختلفة « لا يمكن معالجتها ، معزية ، عظيمة . . . الخ . وضع هذه المواقف في ترتيب تصاعدي .

بالممارسة وبالاستفادة من الخبرات اليومية ، عليك أن تصل خلال بضعة أسابيع ، إلى جدول من المواقف المعروفة منك . . . وهي في ترتيب تصاعدي تكون فيه أنت أفضل حكم .

طلب آيزنك إلى عميله : ما هي المواقف التافهة التي لا يمكنك معالجتها بدون ألم وكان العميل مهندساً عازباً عمره ٢٥ سنة (نظرية التعلم والسلوك العلاجي ١٩٥٩) . أجاب هذا جواب خبط عشواء : « طلب الكلفة في البار . . . قال لخادم المطعم بأنه يجب أن يلبي طلبه بسرعة . . . . وجد نفسه برفقة أمرأة . . . قرر المكان الذي يجب أن أذهب إليه لتناول الطعام مع رفاقي . . . اقترح موعداً لفتاة أعرفها . . . ألاطف أمينة السر عندي في المكتب لتنفيذ عمل بشكل جيد .

بعد تفكير ومناقشة تشكل الترتيب التصاعدي على النحو التالي أول سادس رابع ثانٍ ثالث خامس .

يكمن الانجذاب الحازم بالقبض على الموقف الأول (الأقل مشقة) وباجتيازه بشكل منهجي وبشدة إلى أن تصبح متحولة إلى موقف سهل ومريح ومنبسط بشكل كامل .

نرى فتانا هذا يلزم نفسه بطلب مشروب معين من خمس إلى ست مرات في اليوم وخلال شهر (قهوة ، مياه معدنية ، مقبلات أو أي شيء آخر) في إحدى بارات المدينة ، وهذا الموقف لا يثير عنده أية مشكلة .

عندما تتم السيطرة التامة على الموقف الأول من اللائحة ، يجري الانتقال إلى الموقف الثاني خلال الوقت اللازم لذلك (من شهرين إلى ثلاثة أشهر ، مثلاً) وهكذا دواليك .

٢ ـ الاسترخاء في إبطال التحسس التدريجي عند فولب . ـ تحتاج هذه التقنية إلى وسيلة مساعدة : التعلم على الاسترخاء . ينبغي إذاً كبح الكبت (تقنية يقال عنها « الكبت المتبادل » أو « عكس التكيف » عند فولب في « المعالجة النفسية بالكبت المتبادل » ١٩٨٠) .

يجب أن يتم تعلُّم الاسترخاء على حدة ، مع اختصاصي بإحدى الأساليب المستخدمة حالياً (مثلاً طريقة أو أسلوب شولتز أو طريقة جاكوبسون ، إلى أن يصبح بإمكانك أخذ وضعية لجسمك يكون فيها الفكر مسترخياً إرادياً .

بعيداً عن التعلُّم ، يجب تحضير لائحة منظمة من المواقف الصعبة كما جرى في الطريقة السابقة .

تكمن طريقة أخذ هذه الوضعية في إمتداد الجسم مسترخياً وتخيل الموقف الأول دون إضاعة الاسترخاء . هذا فقط بعد عدة جلسات لم يعد هناك أي ازعاج للاسترخاء نفسه من ناحية الصور المثارة ومن ثم نمرّ لاستدعاء الموقف الثاني من اللائحة التصاعدية ، وهكذا دواليك .

يصبح الرجوع إلى الواقع أمراً سهلاً ، إنما ينبغي تطبيق الطريقة

نفسها : الاحتفاظ بالاستجابة المعاكسة (إنبساط - استرخاء عضلي كامل) عندما نكون معرضين للموقف الأول ثم الثاني والثالث الخ . . .

حسب قول الممارسين ، لا تستمر ردود الفعل الأكثر شدة أكثر من ٢٥ جلسة من هذا التكيف المعاكس .

الفصل الثاني

العلاجات النفسية

إذا لم تؤدِّ كل هذه الوسائل أو بدت أنها خارج المحمل عند الشخص المعقَّد ، عندها يجب العودة إلى العلاجات النفسية بالمعنى الصحيح كي يتم الشفاء .

I ـ العلاجات النفسية الفردية

يقول لويس فولبرج في كتابه التحليلي في طرائق العلاج النفسي (تقنية العلاج النفسي . منشورات جرون وستراتون ١٩٦٧) : يوجد من ٣٥ إلى ٣٦ طريقة مختلفة في العلاج النفسي . كل ذلك كي نحذِّر القارىء إنه لا يوجد إلا التحليل النفسي الفرويدي كطريقة مستقيمة تساعده على التخلص من العقد .

بما أنه من غير المناسب أن أُفصِّل هذه الطرائق هنا ، في هذا الفصل ، أكتفي بذكر مبادىء العلاج النفسي بشكل عام وما يمكن توقعه منها للشفاء من العقد .

١ ـ العلاقة الخارجية . ـ عندما نعود إلى العلاج النفسي ، هذا يعني بادىء ذي بدء إننا نبحث عن مساعدة ونقبل بها . يتورط المعالج النفسي (الذي يكون عادة طبيب وسيكلوجي أو على الأقل سيكلوجي متخصص) بعلاقة مع عميله ، علاقة تكون مهنية وشخصية معاً ، فتحوِّل موقف المريض الوجودي . وتشعره بأنه ليس هو لوحده .

يقتبس العميل X من العلاقة الشخصية الجديدة أملاً وقوة لاجتياز مشاكله .

من المؤكد أن تكون هذه العلاقة متسمة في البداية بالتواءات معقدة (أو أن المريض يرى الآخر جزئياً ويتصرف معه حسب عقده العادية) ، إلا أن الموقف العلاجي يحلل هذه العلاقة ، وهذا ما لا يحصل في أي مكان آخر .

إن طرائق التحليل النفسي (الفرويدي ، الادلري أو الجانكي) في العلاج النفسي تضع النقاط على الحروف في هذا المظهر العلائقي .

٢ ـ فهم عالم العميل الخاص من قبل المعالج . ـ يحاول الطبيب المعالج ، بعد وضع نفسه في مستوى المعاني المعاشة ، فهم وتسهيل التعبير العفوي لما الذي يعيشه « مريضه » ، وبفضل أسرار هذا الترتيب ، يستطيع الدخول في معنى المواقف الوجودية لعميله . لهذه العملية الأساسية أربع نتائج : ١) أنها تؤسس وتقوي الصلة

الشخصية التي تعتبر في حالة معالجة (يحطم العزلة المؤلمة لشخصيته التي تحتاج لمساعدة ؛ فبخلق ما يُعرف بالاتصال) . ؛ ٢) تتيح للمعالِج فهم ما يجري لعميله (شرط ألّا يتخذ المعالج أي موقف حكمي أو تفسيري أو إيحائي) ويحاول تطبيق تفكيره عليه ؛ ٣) إنها تجبر العميل على صياغة ما يحس به وتحويل حياته المعيشية إلى مفاهيم كي يوصلها إلى المعالج مما يعزز تفكيره ويجبره على الملاحظة وفهم نفسه ٤) إنها تبطل الدفاعات الاجتماعية ودفاعات الأنا الداخلية ، مما يجعله يتقبل نفسه بقدر ما يتقبله المعالج ، من هنا يحدث تهدئة الصراع الداخلِي والخارجي ، وينطلق الأنا بمبادرة جديدة فعّالة .

إن سيكلوجية العلاج غير الموجهة التي نادى بها كارل روجرز التي تعطي الأهمية الكبرى لهذا النوع من العلاج : يُساق العميل كي يعي ما يحدث في داخله ، فيخرج الأنا من سلبيته العمياء ، ويبسط الوعي المفكِّر سلطانه ويشعر بقدرته .

٣ ـ توضيح الثوابت الشكلية للسيناريوات، للحلقات المفرغة، وللمسلمات اللاعقلانية للسلوك . بعد توضيح المعاني الحية ، من المهم توضيح متغيرات السلوك المرتبطة بمتغيرات اعوجاج الواقع .

تتماسك العقدة كما رأينا بعضها البعض وتخلق مواقف مريبة تعمل على تقويتها. من المفضل أن يراها الوعي المفكر . كما يولد النهج الادراكي الانعكاسي لعبة تكرار السيناريو نفسه . تستخلص بعض المسلمات من الوجود بوضوح .

ففي إحدى أمثلتنا السابقة ، تدعي إحدى الشخصيات بأنها تبني حياتها على المسلمات التالية علمًا بأنها لا تستطيع أن تقول لا ؛ « يجب أن تُرضي كل الناس » وإرضاء الآخرين يعني الخضوع » .

أما مثل المشهد الزوجي ، إضطر صاحبنا للتفكير بالحدث الأكيد الذي يعني بالنسبة إليه « إذا انزعج من شيء ما ، يجب رفض أو إبعاد الشخص الذي كان سبب هذا الانزعاج » أو أيضاً إذا إنتقدني أحد هذا يعني أنه أهملني وسلبني الحب بشكل نهائي » أو أيضاً « أن يكون محبوباً يعني يكون مقبولاً بلا شرط » .

يمكن أن يُمارس التفكير أخيراً على معطيات أكيدة : يخرج المبدأ الوجودي من ظله ويتعرَّض للحكمة ولا يهدأ تحت هذه الاضاءة الجديدة التي تكشف لاعقلانيته المسممة بوضوح . تدشن هذه العملية الرئيسية هداية أكيدة . يدرك الأنا وجوده الواعي ويبدأ بالتفاعل .

هذا هو التحليل الوجودي لِ . ل . بنفنجر ومدارسه المجمعة للعلاج النفسي التي تهتم بهذا المظهر من علاج العقد والهذيان .

٤ ـ **مجابهة الحقيقة** . - يمكن للمعاني المدركة ، ذاتياً من قبل الشخص المعقَّد (المعاني المتخذة حقيقة وحيدة بالنسبة إليه) ، وبفضل العلاج السيكلوجي أن توضح بشكل كافٍ « بالمناسبة » كي نظهر حقيقة أخرى تجابه هذه المعاني .

لا يريد الخروج في الشارع لأنه متأكد أن أنظار كل الناس التي

يصادفها كلها هازئة منه أو مدعية عليه (من هنا سلسلة إحداث تلازم كل وجوده ، مثل تجنب الخروج أو إذا خرج فلا يخرج إلا ليلاً أو أبان العاصفة يتقنع قدر استطاعته ، يلاصق الجدران ، يجعل نفسه صغيراً يفتش عن عدم الرؤ ية ، لا يدخل إلى المخازن الخ . .) تبدو خلال العلاج النفسي كسلوك « منطقي » بالنسبة للمعاني التي تعتبر كإسقاط نفسي وليس كإدراكات ويكون الشخص المخصص للضحية مخدوعاً بهذا الاعتقاد . يكون الأنا مذعوراً حتى الآن ، يدرك أنه يرتجف أمام أشباح منطلقة من مخيلته . وتنكشف الحقيقة .

يجب أن ندرك أن الحقيقة تعطل في المواقف المعقدة بواسطة معانٍ تأتي من العقدة . فإظهار الحقيقة أو إزالة العقدة تشكل العمل نفسه . تحل المعاني السوية محل الاستيهام ، كما تؤ ول إلى مرآة خرافة توقف الاعتقاد بها .

عندما يتم توضيح المعاني الوهمية بعمق ، وتحت تأثير السيكلوجي المعالج ، يكتشفها الوعي المفكر كأوهام بالنسبة للحقيقة المعروفة بموضوعية . هذه النتيجة المهمة من العلاج النفسي تطلق عليها مدرسة شارل بودوين « إنسحاب الإسقاط » . مدرسة أخرى من العلاج النفسي (حقيقة العلاج النفسي لوليم كلاسر) لم تهتم بالأوهام بل اتخذت نهجها بوضع المريض نظامياً بمواجهة الحقيقة ، فاعلة إذاً عكس هداية الأوهام لكن بنفس الهدف الذي يعيد تكامل الواقع .

يتم تحليل الأوهام المباشرة بتشجيع العميل على التعبير عن عالمه الخيالي السحري ، وذلك بطرق الاستطلاع على المرسمة Imagerie الذهنية وأول صف منها الحلم الموجه مع روبيرت ديزويل ، وعند الأطفال ، العلاجات باللعب .

٥ ـ **تعزيز الأنا** . ـ إن ضعف الأنا ، كما رأينا ، هو عنصر أساسي في جدول العقد غير المتوازنة . وحسب نظرية بيار جانيه ، يجب قلب ترتيب الأسباب ، ولا نعتبر الأنا ضعيفاً لأن العقدة تضعفه لكن الآلية الشبه واعية تنتظم في آلية منفعلة لأن الأنا ضعيفاً .

حسب هذه النظرية ، يجب أن تتمركز سيكلوجية العلاج على تعزيز الأنا فقط .

كل المظاهر السابقة التي تصف سيكلوجيا العلاج ، عندها بلا تفريق أثر في تقوية الأنا : كالعلاقة العلاجية نفسها ، والتعبير الادراكي لما هو معاش مَن قبل العميل كي يفهم نفسه ، النقد الذاتي بالتفكير بعد توضيح الاعوجاجات المحتملة مما يُرى ومجابهة الواقع .

كما رأينا أيضاً أن البحث عن التوازن الايجابي يتيح للأنا تخطي عقده . وهكذا يحدث لوسائل أخرى وذلك بالحفاظ على الجسد بالاسترخاء والسيطرة على الذات بالرياضة والاستيلاء من جديد على الارادة بالتمرين السيكوحركي عند لي بولخ Le Boulch (أو بالطرق المشابهة بالسيطرة على الحركات والعلاقات الزمنية ـ المكانية وعلاقات الجماعة بتطور جماعي متناسق) .

إلا أن بعض العلاجات النفسية تتجه بشكل خاص نحو التعزيز المباشر للأنا ويرد إلى ذهننا طريقة فيتوز في تركيز الانتباه وإنماء الإرادة .

لاختصار هذه الأبعاد لكل أنواع العلاج النفسي (تغطي كل طريقة كل الطرق الأخرى لكنها تحرك بشكل خاص هذه أو تلك) لنقل بأن الهدف المشترك ، كما يقول شارل بودوين ، هو التخلص من الانسان الآلي (الذي يشبه الأفراد المعقدين والمصابين بالعصاب) إلى الأنا الحر الذي يبسط سيطرته على كل أنواع سلوكه ومغطياً مسؤ وليته الكاملة لوجوده ولمستقبله .

II ـ العلاجات النفسية للجماعة

يصل الاضطراب العقدي للعلاقة الاجتماعية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وقد فكر سيكلوجي العلاج منذ زمن بعيد في استخدام الجماعة (أو الفرد في الجماعة) للعلاج من العقد والعُصابات النفسية .

تعود أولى المحاولات المنهجية في هذا المجال إلى مطلع القرن لأنه بعد راجنر فوجت (١٩٠٠) ، ج . هـ . برات (١٩٠٥) جيرجنسون (١٩١٥) ، يعود الفضل إلى تريجان بورُّو (منهج التحليل في الجماعة ١٩٢٧) كانت أولى الصيغ الجماعية لتطور تغيير

المواقف الفردية بتأثير الجماعة ، صياغة أعاد بحثها سلافسون (١٩٣٤) ولويس فاندر وقادة آخرون . نذكر أيضاً أن جاكوب ليفي مدرينو (١٨٩٢ ـ ١٩٧٤) تلميذ مخالف لرأي فرويد وواجد التمثيل النفساني ، بدأ تجاربه في المسرح العلاجي منذ سنة ١٩١٨ .

بعد هذا الماضي الطويل رأت النور الطرق الدقيقة في ديناميكية الجماعة (بمعنى تكوين الصيغة التجريبية بواسطة تجربة الجماعة) انطلاقاً من إسهام كورت لوين الأساسي بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٤٧ (سنة وفاته قبل الأوان) .

منذ عهد الممارسين الأول بحماسة ـ في العمل الجماعي (حلقات « ديناميكية الجماعة بمعناها السابق) رأوا في الطريقة الجديدة وسيلة إبدال التحليل النفسي (بتكاليف أقل وبوقت أقصر) لشفاء العقد ، وقد اكتُشفت متغيرات متعددة البعض منها حديثة جداً (جماعات « اللقاء » وجماعات الطاقة الحياتية المؤسسة على التحرر الجنسي في الجماعة) كلها مضرة في أكثر الأحيان أكثر مما هي مفيدة لأنها تستهدف بإلحاح « كسر دفاعات الأنا » . هدف ضخم وأعمى يُخشى أن يكسر الأنا من الصدمة نفسها أيضاً .

دون أن ندخل هنا في تفاصيل الطرائق ، سأقول لماذا وتحت أية شروط تستطيع السيكلوجيا العلاجية للجماعة والعلاج الاجتماعي عندما يتم تنفذها على يد ممارسين أكفاء وواعين لمسؤولياتهم ، أن تشفي من العقد .

١ ـ إن جماعة العلاج النفسي أو العلاجي الاجتماعي تعتبر موقف اجتماعي . ـ هذا الموقف كما هو يعتبر ممثلاً للوجود الاجتماعي بشكل عام ، وللأفراد المساهمين يتصرفون مع كل مشاكلهم العقدية العادية . لكن هذا الموقف يحدده العدد (يكون عادة ١٢ شخص) ويكون مضموناً من قبل المعالج المحرِّك (أو المعالجين إذا كان هناك معالجين كثر) ومنظم من قبل إتفاقيات مصاغة بوضوح منذ البداية .

يساعد المعالج المشاركين ، وينتبه للاتصال اللفظي وغير اللفظي لكل منهم ، ويدعم جهود التعبير .

مع مرور الزمن (تدوم الحلقات ساعتين مثلًا وتستمر كل الأسابيع) وكل فرد يشعر أنه أفضل وينمي عفويته في الوقت الذي يربط علاقات اجتماعية عاطفية جديدة .

٢ ـ كل فرد يشعر بأن مشاكله تتواجد عند الآخرين، ولا يحمل عبثها بمفرده ويحس بأحاسيس جديدة تجعله « يزيح عن المركز » تدريجياً أي تجعله منفتحاً على الآخرين ويهاجم بعنف التمركز العفوي الذاتي . عندما تكون هذه المشاكل تختلف عن تلك التي يعيشها يقوم المشارك بنسبتها إلى مشاكله . وعندما تتشابه مشاكل فرد آخر كإنعكاسات لمشاكله الخاصة ، يرى المشارك من الخارج المؤشرات الاجتماعية ويتدرج في الفهم الذاتي .

٣ ـ يعي كل فرد الصورة التي يعطيها للآخرين عن ذاته، صورة تأتي من جراء تصرفه ضمن الجماعة . بحيث أن (كما أشار إليه فاتز

لوفيك ، هلميك بيفن وجاكسون) « السلوك لا يكون عنده مضادا » أي إنه لا يمكن إلا أن يكون عنده سلوك ولا يستطيع التخلُّص (في الموقف « المغفل » الذي تتخذه جماعة العلاج النفسي) من المراقبة من قبل الآخرين وتفسير التصرفات التي نسلكها .

وفي حال أدركنا ، بالموقف ، الفكرة التي كونها عنا الآخرون انطلاقاً من تصرفاتنا ، نتوصل إلى فهم ردود الفعل التي تحصل بشكل أفضل وذلك بفهمنا لمواقفنا الخاصة والمعنى الذي تؤديه عند الآخرين .

في موقف الجماعة العلاجي ، يستطيع كل فرد تجربة مواقف جديدة وتصرفات وأدوار جديدة ، قد تكون مستحيلة عليه في الحياة الاجتماعية العادية ، أما لأنها لا تكون قد تمت ممارستها أبداً ، أو لأنها محزنة ومولِّدة للألم .

ففي لعبة الدور يتخذ الممثل النفسي أو الاجتماعي كمؤشر أساسي في العلاج . إن وعي الدور التافه الذي يلعبه الشخص المعقد يشمل التفكير في عدم ملاءمة هذا الدور الثابت (والسيناريو الذي يشكل جزءاً منه) بالنسبة لتنوع المواقف الحقيقية أو لاختلاف المشاركين الاجتماعيين ، من هنا الالحاح على تجربة الأدوار الجديدة (وعي التلقائية حسب معنى مورينو) إنطلاقاً من إدراكٍ أكثر تصويباً وأكثر واقعية للمواقف .

استخدمت تقنيات أكثر دقة لتحريك وتغيير الادراك العقدي

والذاتي للمواقف ، مثل تقنية « قلب الأدوار » .

٥ ـ يؤثر موقف الأشخاص القياديين ضمن الجماعة أو الأكثر نضجاً إنفعالياً على الآخرين ، ويشجعهم في التقدم في اتجاه الآخرين . ـ للجماعة تأثير ديناميكي لأن كل فرد يجد فيها نماذج للتصرفات التي يرغب القيام بها دون أن يستطيع حالياً وضعها موضع التنفيذ . من الطبيعي أن يكون المعالج النفسي حذراً حول هذه التأثيرات ، ويعرف كيف يميز التأثيرات المضرة (مشدداً على الحالة النفسية المضطربة) عن التأثيرات المفيدة (ديناميكية وملحّة) مما يفرض عنده إدراكاً واضحاً للقيم عدا الهم السوي لصحة عملائه الجيدة .

تؤدي تقدمات الجماعة نحونضج (قدرة كل منهم على التعبير بثقة متبادلة ، التساوي في الحقوق ، تحريك وتليين مناهج الآراء والمعتقدات والتصرفات بفضل التفاعلات وتداخل التأثيرات ، والقدرة على التنظيم الذاتي واتخاذ القرار الخ . . .) إلى تقدمات فردية في الاتجاه نفسه .

يتأكد هذا المظهر في حلقات ديناميكية الجماعة في استخدامها للعلاج النفسي . هكذا تتقدم عدة سبل للذي أو التي يريد إيجاد القدرة على تحقيق ذاته حيث تتعطل عقده أو تتحول .

خاتمة

يترك الماضي وتجاربه كما عاشها الأنا بوسائله، للفهم والدفاع ، حتى ولو نُسيت ، آثاراً من شأنها أن تكوِّن ، في بعض الحالات ، أنظمة لاواعية من الادراك والتصرف بإمكانها تغيير معاني الحاضر والأنا والمستقبل والآخرين بشكل احتمالي ، هذه الأنظمة تسبب أحياناً مرضاً هي العقد النفسية .

لقد تأسست حتى الآن ناحية الماضي والعمر الفتي في بنائها ، مما يكشف مسؤولية البيئة في حياة الطفل ومن ثم الأهل والمربين في تكوين العقد .

يجب ألاَّ نستخلص حتى الآن على منوال الدكتور سبوك المشهور ، إنه يجب أن نجنِّب الأولاد كل حاجز ، كل شيء ممنوع وكل حرمان فالتربية بعيداً عن القيم والحدود ومراقبة الذات تولّد اضطرابات أكثر خطراً من العقد كما توصل إليه الدكتور سبوك مؤخراً .

كل مخلوق بشري بحاجة إلى سمات كي يتمركز ، إلى حدود كي يتقيَّم ، إلى أنظمة كي يتعلم كيف يتقي الآخرين ، إلى حرمان كي يؤكد قدرته على التسامح والكبت والشجاعة والارادة والمراقبة الذاتية . لكن عليه أيضاً أن يتعلم العفوية والفرح والثقة بالنفس والغيرة والمستقبل ، والقدرة على الحب ، والشعور بالطائفة ، وإمكانية التوازن الدقيق بين الحرية والمسؤولية ، هذا ما يحدد الجزء الآخر من دور الأهل في تدارك العقد النفسية واضطرابات الشخصية .

مصطلحات

Abstract	مجرّد ، قصوري
Adaptation	تكيف
Apprentissage	تعلّم
Altitude	قدرة
Assimilation	إستيعاب
Behaviorisme	سلوكية
Carence affective	قصور عاطفي
Collectif	جماعي
Classification	تضعيف ، تصنيف
Complexe	عقدة
Complexe de Culpabilité	عقدة الذنب
Compensation	تعويض
Conscience	شعور وعي
Conglomerat	إندماجة
Développement	تطور نمو
Egocentrisme	المحورية الذاتية
Energie mentale	طاقة ذهنية
Émotion	إنفعال
Entrone	عائق

Etape	مرحلة ، مراحل
Fantasme	إستيهام
Gestalt	جشطالت ـ المدرسة السلوكية
Gêne	ضيق
Illusion	أوهام
Inhibition	كبت السلوك
Inconscient	اللاوعي
Inné	فطري
Instable	غير مستقر
Integration	تكامل ، تدامج
Intelligence	ذكاء
Intuition	الحدس
Intentionnel	نزوعي ـ قصدي
Jugement	حكم ، أحكام
Libido	الليبيدو ـ شحنة في الجسم
Maturation	النضج
Mecanisme	آليات ـ ميكانيزم
Moi	الأنا
Motivation	مثير
Opération	عملية

Općrationnel	عملاني ـ إجرائي
Perturbation	إقلاق إزعاج ، إضطراب
Phallus	العضو الجنسي الذكري
Processus	سياق
Psychosomatique	نفسي ـ جسدي
Pseudo - Concepts	مفاهيم مستعارة
Projection	الإسقاط النفسي
Pulsion	الدوافع
Psychose	هذيان
Réactions	ردات فعل ـ استجابات
Réflexe	منعكس ، منعكسات
Réponse	جواب استجابة
Représentation	تمثيل ، تصور
Regression	نكوص
Raisonné	قياسي
Reversible	عكسي متبادل
Sensori - Moteur	حسي ـ حركي
Sentiment de Culpabilité	الشعور بالذنب
Stémulus	مثير
Subconscient	الشبه واعٍ

Surcompensation	تعويض أو تعديل
Tension	توتر
Test	اختبار - رائز
Transformations	تحولات
Velleitaire	ضعيف الارادة

مراجع بيبليوغرافية

A. ADLER, *Connaissance de l'homme*, tr. fr., Pet. Coll. Payot, 1966.
A. ADLER, *Le sens de la vie*, 1933 ; tr. fr., Payot, 1950.
G. AIGRISSE, *Psychothérapie analytique, 8 cas*, Ed. Universit., 1967.
D. ANZIEU, *L'auto-analyse*, PUF, 1959.
G. BACHELARD, *L'air et les songes*, Ed. J. Corti, 1943.
G. BACHELARD, *L'eau et les rêves*, Ed. J. Corti, 1947.
G. BACHELARD, *La terre et les rêveries de la volonté*, Ed. J. Corti, 1948.
G. BACHELARD, *La terre et les rêveries du repos*, Ed. J. Corti, 1948.
G. BACHELARD, *Psychanalyse du feu*, NRF, 1949.
Ch. BAUDOUIN, *L'âme enfantine et la psychanalyse*, 2 vol., Ed. Delachaux-Niestlé, 1950.
O. BRACHFELD, *Les sentiments d'infériorité*, Ed. du Mont-Blanc, 1945.
A. CARNOIS, *Le drame de l'infériorité chez l'enfant*, Ed. Vitte, 1958.
B. DISERTORI et M. PIAZZA, *Psychiatrie sociale*, tr. fr., ESF, 1975.
F. d'EAUBONNE, *Le complexe de Diane*, Ed. Julliard, 1951.
H. ELLENBERGER, *A la découverte de l'inconscient*, 1972 ; tr. fr., Ed. Simep, 1975.
A. FREUD, *Le moi et ses mécanismes de défense*, tr. fr., PUF, 1949.
S. FREUD, *Psychopathologie de la vie quotidienne*, 1904 ; tr. fr., Payot, 1948.
S. FREUD, *Essais de psychanalyse appliquée*, tr. fr., Gallimard, 1952.
G. GUEX, *La névrose d'abandon*, PUF, 1950.
A. HESNARD, *L'univers morbide de la faute*, PUF, 1949.
E. JACOBSON, *Biologie des émotions. Les bases théoriques de la relaxation*, 1951 ; tr. fr., ESF, 1974.
P. JANET, *L'automatisme psychologique*, Alcan, 1889 ; rééd. Soc. P. Janet, 1975.
P. JANET, Communication à la 12e section du XVIIe Congrès international de Médecine : *Rapport sur la psychanalyse*, Londres, 8 août 1913.
C. G. JUNG, *L'homme à la découverte de son âme*, 1931 ; tr. fr., Ed. du Mont-Blanc, 1944, partic. Livre II : « Les complexes ».
R. LAFORGUE, *Psychopathologie de l'échec*, Ed. Payot, 1950.
J. LAPLANCHE et J.-B. PONTALIS, *Vocabulaire de la psychanalyse*, PUF, 1967.
S. LEBOVICI, *Les sentiments de culpabilité chez l'enfant et chez l'adulte*, Hachette, 1974.
R. MUCCHIELLI, *Les complexes personnels*, Ed. ESF-EME, Libr. Tech., 2e éd., 1974.
R. MUCCHIELLI, *Analyse existentielle et psychothérapie phénoméno-structurale*, Ed. Dessart, Belg., 1973.
Ch. ODIER, *L'angoisse et la pensée magique*, Ed. Delachaux-Niestlé, 1947.
W. REICH, *L'analyse caractérielle*, 1933 ; tr. fr., Payot, 1971.
C. ROGERS, *L'entretien d'aide et la psychothérapie*, tr. fr., ESF, 3e éd., 1973.

فهرس

القسم الثاني
العقد الشخصية
اللائحة البيانية ـ والوصف

القسم الثالث

التخلص من العقد النفسية

منشورات عويدات ١٩٨٨/٩٧٩